روائع المسرح العالمى

١٩

سيادة المشاغل

مسرحية من أربعة فصول

للكاتب الفرنسى الشهير

بول هرفيه

ترجمة

محمد حمودة

مراجعة

مصطفى فودة

تقديم

الدكتور محمد مندور

الجمهورية العربية المتحدة

وزارة الثقافة والإرشاد القومى

الإدارة العامة للثقافة

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٦١

مقدمة

بقلم: الدكتور محمد مندور

سباق المشاعل
مسرحية ذات رسالة

تعتبر مسرحية « سباق المشاعل » من النوع الذى يسمونه فى النقد المسرحى المسرحيات ذات الرسالة Pièces à thèse وهم يقصدون بها المسرحيات التى يكتبها مؤلفوها لإيضاح وتجسيد حقيقة أخلاقية أو اجتماعية أو فكرة إنسانية عامة ، وكأن المؤلف يوجه إلى الجمهور رسالة توضح هذه الحقيقة أو الفكرة وتفحصها على واقع الطبيعة والحياة .

ورسالة هذه المسرحية أو فكرتها مستمدة من عادة أو طقس دينى قديم كان يزاوله الإغريق فى مدينة آثينا

القديمة ، وقد قص ماراثون أحد شخصيات هذه المسرحية هذه العادة وأوضح مدلولها الرمزى فقال مخاطباً مدام سابين بطلة هذه المسرحية الأولى : « إنك لم تسمعى دون شك عن « أعياد المشاعل » ؟ . . سأفصل لك الأمر : كان المواطنون يقفون لهذه المناسبة الجليلة متباعدين مكونين ما يشبه السلسلة فى آتينا . كان الأول يوقد شعلة من المذبح ، ويعدو فيسلمها إلى ثان وهذا يسلمها بدوره إلى ثالث وهكذا تنتقل الشعلة من يد إلى يد . كل متسابق يعدو دون أن يلقى نظرة خلفه فليس له من غاية إلا المحافظة على الشعلة التى معه وتسليمها بعد ذلك فى الحال إلى واحد غيره ، وبعد أن يتخلى عنها يقف ؛ ومع أنه لم يعد يرى إلا الضوء المقدس يسرى بعيداً عنه فإنه يظل يحرسه على الأقل بعينيه ، بقلقه العاجز ، وبكل أمانيه . هذا السباق هو صورة الأجيال ، الحياة نفسها . ولست أنا الذى أقول بذلك بل يقول بها صديقاى العزيزان جداً : أفلاطون والشاعر الطيب لوكريس » . وواضح من صورة هذا العيد الذى يرمز للحياة وانتقال شعلتها من جيل إلى جيل أن الإنسان لا يتجه ببصره أى بعنايته إلى من يتلقى عنه شعلة الحياة بل يتجه إلى من يسلمه إياها ، وبمعنى أوضح

أن الإنسان لا يتجه بعنايته إلى والديه بل يتجه بها إلى أبنائه . وإذا كان واقع الحياة الحضرية لا يؤيد هذه الحقيقة تأييداً كاملا فذلك لأن الإنسان لم يعد يعيش بغرائزه فحسب ، إذ تهذبت تلك الغرائز بل عورضت بتعاليم الديانات والأخلاق اللذين يخلقان ما نسميه الضمير عند البشر وما نسميه العرفان بالجميل لمن وهبونا الحياة وصانوها لنا ونموها وهذبوها فى نفوسنا وأرواحنا وهم آباؤنا حتى لنحس بأن التربية الحضارية قد ولدت فينا اتجاهاً نحو الآباء كثيراً ما يتصارع مع اتجاهنا الغريزى نحو الأبناء وهو الاتجاه الذى يرمز له عيد المشاعل عند أولئك اليونان القدماء الذين رمزوا بأساطيرهم وأعيادهم وطقوسهم إلى أعمق الحقائق الإنسانية والكونية على نحو يكاد يوحى بأن أبصارهم كانت تتغلغل فى أعمق الأسرار . وهذا الاتجاه الحضارى المضاد هو ما تحس به مدام سابين فى هذه المسرحية عندما ترد على السيد مارافون قائلة : « إننى لا أتصور الصلات العائلية على هذا النحو فتقبل الحياة فى نظرى يفرض واجبات كتلك التى يفرضها إعطاء الحياة . هناك شىء متماثل ومشترك — رباط وحيد يوازن بين الالتزامات . فما دامت الطبيعة لم تهيئ للأبناء أن يلدوا أنفسهم . فأقول إن

الطبيعة قد فرضت عليهم ديناً نحو الذين أتوا بهم إلى الدنيا » .

وهكذا يبرز لنا ماراثون وسابين الاتجاهين اللذين قد يتعارضان فى حياتنا وهما الاتجاه الغريزى نحو الأبناء والاتجاه الأخلاقى نحو الآباء ، وبذلك توفر للمسرحية طرفا الصراع الذى كان من الممكن أن يجرى فيها على نحو قوى ، ولكن المؤلف لم يستغل إمكانيات هذا الصراع الاستغلال الكافى الذى يخرج بمسرحيته عن نطاق المسرحيات ذات الرسالة أى المسرحيات الإيضاحية التى تعتبر من نوع أدنى من مسرحيات الصراع القوى المؤثر .

والواقع أن بول إرنست هرڤيو مؤلف هذه المسرحية قد تخصص فى كتابة المسرحيات ذات الرسالة . وإذا كان أساتذة الأدب ونقاده يقسمون إنتاجه المسرحى إلى مجموعتين أو فترتين التزم فى أولهما بتكنيك المسرحية ذات الرسالة التزاماً صارماً جامداً بينما تخلل بعض الشىء فى المجموعة الثانية من هذا الطابع الكاذب لكى يدخل فى المسرحية نوعاً من الصراع الذى يوحى بأن الرسالة التى يقدمها أو يوضحها ليست مطلقة ، ومن هذا النوع الأخير تعتبر مسرحية سباق المشاعل التى ألفها فى سنة ١٩٠١ ، أو بتعبير أدق التى قدمت

على مسرح الفودفيل فى ١٧ من أبريل سنة ١٩٠١ — إذا كان هذا التطور قد حدث فعلا فى مسرح هرفيو فإننا نستطيع أن نؤكد أن طابع المسرحية ذات الرسالة قد ظل مع ذلك واضحاً فى المرحلة الثانية التى تنتمى إليها مسرحيتنا هذه ، وذلك لأننا نحس بعد قراءتنا لهذه المسرحية أن المؤلف مؤمن بأن مزى عيد الشعلة لا يزال حتى اليوم وفى الحياة الحضارية قانون الحياة الغلاب ، أى أنه لا يزال يؤمن بأن الإنسان أكثر حرصاً دائماً على أبنائه وسعادتهم منه على آبائه ، بل على نفسه أيضاً ، فنحن لا نقبل التضحية بأنفسنا فى سبيل آبائنا ، ولكننا نقبل ذلك فى سبيل أبنائنا مهما تكن جسامة هذه التضحية ، وعلى هذا الأساس تعتبر مسرحية « سباق المشاعل » مسرحية ذات رسالة ، ورسالتها هى إيضاح قانون الحياة النابع من الغريزة التى لا تقهر وهى تلك الغريزة التى تسخر الناس لأبنائهم ولو على حساب أشخاصهم وحساب آبائهم . وأما الاتجاه الحضارى المضاد الذى يدعونا إلى العناية بآبائنا فلا نكاد نراه يدخل فى هذه المسرحية فى صراع جدى مع الاتجاه الغريزى العتيد ، بالرغم من أن المؤلف قد استخدم بعض الشخصيات الثانوية فى هذه

المسرحية للرمز أو للتعبير عن هذا الاتجاه الأخلاق المتهزم أو الخافت المتوارى فى ثنايا المسرحية .

ومسرحية « سباق المشاعل » ليست جديدة كل الجدة على جمهورنا العربى . فقد سبق للدكتور طه حسين أن تحدث عنها ولخصها وأبرز مغزاها أو رسالتها فى مقال نشره فى الصحف منذ أكثر من ثلث قرن . ثم جمعه مع المقالات الأخرى المماثلة فى كتابه المسمى « قصص تمثيلية » وقد ترجم عندئذ عنوان هذه المسرحية بعبارة « شوط القبض » ، وذكر فى عرضه لفكرتها أن العيد اليونانى القديم كان على حق فيما رمز له من قانون الحياة الذى يسوقنا دائماً إلى أن نتجه بأبصارنا وعنايتنا إلى أبنائنا . وأن نولى ظهورنا إلى آبائنا ، واستشهد على صحة هذا القانون الغريزى بما لاحظه من أن الديانات كلها لا تدعونا إلى البر بالأبناء لفطنتها العليا إلى أن غريزة الحياة قد تكفلت بذلك . فسخرت الآباء للأبناء ، وأما رعاية الآباء فهى التى تحتاج إلى توجيه من الخالق مرسل الديانات ويستدل على ذلك بأن القرآن الكريم لم ترد به آية توصية بالأبناء فى حين نراه يوصى بالآباء خيراً فيقول : « وبالوالدين إحساناً ، إما يبلغن عندك الكبر

أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا » . وإذا كان الدكتور طه حسين قد أغفل الإشارة إلى ما ورد فى القرآن أيضاً من رفق بالأبناء يتمثل فى نهيه عن وأد البنات أو قتل الأولاد خشية إملاق أى فقر — فذلك لأنه قد اعتبر هذه الآيات محاربة لعادة محلية قاسية خاصة بالعرب لا توصية عامة مطلقة . بالأبناء ذكوراً وإناثاً تشبه توصيته بالآباء ، فليس فى القرآن أية وصية عامة بالأبناء . فهو يقول « وبالوالدين إحساناً » ولم يقل قط وبالأبناء إحسانا ، وذلك لأن الغرائز قد تكفلت بذلك . وعلى هذا الأساس أقر الدكتور طه حسين الحقيقة أو الفكرة أو الرسالة التى تقوم مسرحية « شوط القبس » أو « سباق المشاعل » على إيضاحها وتأييدها بالأحداث والتصرفات التى تتضمنها هذه المسرحية وهى حقيقة واقعة لا شك فيها ، فالطبيعة تسخر بلا ريب الآباء للأبناء بل تدفعهم عند الضرورة دفعاً إلى التضحية بأنفسهم وما لهم فى سبيل أبنائهم : ولكن ضميرى يصرخ مع ذلك فى أعماقى معارضاً هذه الحقيقة المرة ومؤكداً أن الإنسان السوى

لا يمكن أن يولى ظهره لآبائه ، ولا أن يتنكر لهم ، أو يفر من ضرورة الإحسان إليهم ، إن لم يكن بشعور طبيعى فبشعور مكتسب عميق متوارث ، وبدافع من الاعتراف بالجميل وعرفان الفضل لأهله أو كما يقول القرآن لأولئك الذين ربونى صغيراً ومن خيرهم كونت لهم كتفى .

تقوم المسرحية إذن على تأييد فكرة أن الإنسان تقضى غريزة الحياة فيه بأن يضحى بأبويه بل وبنفسه فى سبيل أبنائه . ولكننى مع ذلك أبادر فأقرر أن المؤلف قد حرص على أن يختم مسرحيته على نحو يوحى باستهجان الاستسلام لهذه الغريزة القاسية العمياء وإسلاس قيادنا لها بدليل ما انتهى إليه مصير مدام سابين بطلة المسرحية التى ضحت بأمها مدام فونتينيه بل وضحت بنفسها أيضاً فى سبيل ابنتها مارى جان ومع ذلك نرى هذه الابنة فى خاتمة المسرحية ، تترك أمها المسكينة تعانى الوحدة والشقاء وجدب العاطفة لتصاحب زوجها ديدييه إلى أمريكا حيث لاحت له فرصة العمل وجمع الثروة ، فجزت بذلك أمها أسوأ الجزاء بالرغم من صراخ هذه الأم وتمسكها بألا تفارقها ابنتها وتحرمها من متعة القرب منها .

البناء الفنى للمسرحية

ابتدأ بول هرڤيو إذن تأليف مسرحيته بعثوره على الفكرة الرمزية التى استخلصها من وصف أفلاطون الفيلسوف الإغريقى ولوكريس الشاعر الرومانى للعيد الذى كان يعرف عند قدماء الإغريق باسم اللمپادوفوريا Lampadophoria ومعناها الحرفى الاشتقاقى « حملة المشاعل » أى أعياد حملة المشاعل . ثم أخذ يتصور أحداثاً تؤكد المغزى الرمزى لهذه الأعياد ، وركز هذا المغزى فى ثلاث شخصيات أساسية هى مدام ونتينيه الجدة وابنتها سابين وحفيدتها مارى جان . وجعل كلا منهن تتجه بكل حماستها واندفاعها العاطفى نحو المستقبل المتمثل فى الولد وبذلك يلوح مولياً ظهره إلى من سبقه فيما يشبه اللامبالاة على نحو ما كان يحدث عند الإغريق القدماء فى عيد المشاعل . وركز المؤلف الحدث الرئيسى فى شخصين مدام سابين الأرملة الشابة التى توفى زوجها بعد أن بدد ثروته الخاصة ، بل وبدد أيضاً بائنة زوجته ، وبذلك أصبحت مدام سابين وابنتها مارى جان عالة على ثروة

الجدة مدام فونتنيه . . ولما كانت سابين لا تزال نضرة الجمال فقد طلبها الثرى الأمريكى استانجى زوجة له بعد أن توثقت بينهما صداقة عميقة . ولكن الأرملة الشابة تعتذر فى لطف وألم عن هذا الزواج خشية أن يعطل زواج ابنتها الشابة من الشاب ديديه مارانون الذى يطلب يدها ، وذلك لأن هـذا الخطيب قد يتردد إذا رأى أم خطيبته تتزوج من جديد مع احتمال إنجاب أطفال من زوجها الجديد . وهؤلاء الأطفال هم وأبوهم الزوج قد يذهبون بالجانب الأكبر من الثروة التى ستؤول إلى مدام سابين عن أمها . ويضيق ستانجى بتردد سابين ومراوغتها فى الزواج منه فيقرر السفر إلى أمريكا لمباشرة أعماله الواسعة فيها ويعلن سابين أنه لا يقبل أن تراسله وأنه لن يفتح أى خطاب يأتيه منها وأنه سينهمك فى أعماله وبذلك يخمد فى نفسه كل عاطفة .

وتتزوج مارى جان من ديديه الذى يتحول هو الآخر إلى رجل أعمال كبير ولكنه لا يلبث أن يقع فى كارثة مالية تضعه على حافة الإفلاس . ويخفى ديديه أنباء هذه

الكارثة عن زوجته الشابة المحبوبة ، ولكن مارى جان لا تلبث أن تعرف هذه الحقيقة الفظيعة . من أمها سابين ومن والد زوجها الأســـتاذ الجامعى المتقاعد ماراڤون . فتخر مريضة منهكة الأعصاب ويصيبها الهزال الذى يعرضها لمرض السل ، وترتاع الأم سابين لمرض ابنتها وتلجأ إلى أمها مدام فونتينيه لكى تنقذ ابنتها رزوجها بتقديم مائة أو مائتين أو ثلاثمائة ألف فرنك يتفادى بها ديديه إعلان إفلاسه وفقد اعتباره ، ولكن مدام فونتينيه تتذكر عندئذ وصية زوجها بالمحافظة على ما خلف لها من ثروة من أجل ابنتهما مدام سابين ، وتصر الخدة العجوز على رفضها تقديم هذا المال رفضاً عنيداً لا تتراجع عنه قط . وعندئذ تلح مارى جان على أمها بأن تكتب إلى استاذى الأمريكى خطاباً مسهبا تفصل فيه الكارثة التى نزلت بابنتها وزوج ابنتها ، ويخز هذا الطلب فى نفس مدام سابين ويجرح من كبريائها وبخاصة إنها كانت قد كتبت خطاباً إلى استاذى لم تتلق عنه رداً مما أوحى إليها بأنه قد نفذ ما هدد به من عدم فتح خطاباتها أو قراءتها أو الرد عليها بعد أن رفضته زوجا لها . ومع كل هذا تدوس مدام سابين

كبرياءها الجريح فتكتب لاستانجى الخطاب الذى طلبته ابنتها وتسأله العون ولكن استانجى لا يرد على الخطاب ويوشك إفلاس ديدييه أن يعلن فتتفتح حيلة مدام سابين عن محاولة لسرقة الأوراق المالية التى تحتفظ بها أمها فى خزينة لها وتسرق سابين فعلا هذه الأوراق وتذهب بها إلى سمسار الأسرة لكى يقدم لها مائة ألف فرنك غير أن السمسار لا يلبث أن يكتشف تزوير سابين لإمضاء أمها وبذلك تفشل السرقة ويشتد المرض بمارى جان التى ينصح الطبيب بأن تنقل إلى مكان عال بجبال الألب لكى تشفى من مرض الأعصاب ومن مرض السل معاً . ويوصى الطبيب بأن تصحب مدام سابين ابنتها لكى تقوم على رعايتها ، ولكن ينصح فى الوقت نفسه بألا تصحبهما الجدة مدام فونتينيه لأن جو الجبل قد يقضى عليها بسبب إجهاده لقلبها وشرايينها ، ولكن مدام فونتينيه تخير ابنتها سابين بين أحد أمرين : إما أن تبقى معها وإما أن تسمح لها بالانتقال هى الأخرى معها إلى الجبل ، وتعارض سابين فى كلا الأمرين : ولكنها تنتهى فى النهاية إلى الموافقة على سفر أمها هى الأخرى إلى الجبل بالرغم من تأكدها

من أن جو الجبل سيقضى عليها وكأنها بذلك قد ضحت بحياة أمها فى سبيل شفاء ابنتها مارى جان . وفى الفندق الذى نزلوا به فى الجبل تحدث مفاجأة ضخمة إذ يلتقون باستانجى الذى عاد هو الآخر إلى هذا المكان مصطحباً زوجته الأمريكية لكى تلتمس الشفاء من انهيار عصبى أصابها بسبب فقد ابنهما الطفل . وفى أول الأمر تهش سابين لملاقاة استانجى الذى يخبرها بأنه كان قد ترك أمريكا قبل أن يتسلم خطابها الأخير ومع ذلك فقد لا حقه هذا الخطاب حتى وصـــل إليه فى ألب . ويعلن استعداده للعون ، ولكنه لا يكاد يخبر سابين أنه قد جاء إلى الألب لعلاج زوجته الأمريكية التى تزوجها لمجرد الزواج حتى يتبدل الجو ويغشى الموقف ضباب كثيف لا نرى من خلاله شيئاً حتى نفاجأ فى نهاية المسرحية بمرض مدام فونتينيه الجدة وموتها وإن كنا قد علمنا من خلال الحوار الذى جرى فى الفندق بين استانجى وأفراد العائلة الفرنسية أن استانجى قد عرض على ديديه أن يعمل وكيلا لأعماله على أن يسافر خلال أسبوع واحد إلى أمريكا مخلفاً فى فرنسا زوجته مارى جان التى سيستطيع العودة إليها كل ثلاثة

أشهر إلى أن يتمكن من تكوين ثروة خاصة فى أمريكا العامرة بالثراء السهل تمكنه من اصطحاب زوجته والاستقرار النهائى معاً بأمريكا ولكن مارى جان ترفض هذا الحل وتصمم على مصاحبة زوجها ومشاركته جهاده فى الحياة وتتضرع إليها أمها مدام سابين فى ألا تحرمها من رؤيتها وألا تتركها وحيدة فى فرنسا ، ولكن مارى جان تعلن فى صراحة وإصرار على مصاحبة زوجها أنى سار وبذلك نحس أن المسرحية قد انتهت بتضحية مدام سابين بأمها فى سبيل ابنتها ومع ذلك فقد انتهت بتضحية ابنتها بها هى الأخرى وتركها وحيدة حزينة فى فرنسا لتصاحب زوجها إلى أمريكا بحثاً عن الثراء .

وواضح من هذا التلخيص السريع لأحداث المسرحية مدى ما فيها من افتعال نحسه بوضوح من انعدام الحتمية فى تسلسل الأحداث وعدم اقتناعنا بمعقوليتها فضلا عن المصادفة غير المعقولة التى جمعت بين استانجى والأسرة الفرنسية فى فندق الألب ، وكل ذلك فضلا عن الحلول العديدة التى تتبادر إلى ذهننا ولا ندرى لماذا أغفلها المؤلف . فموت مدام فونتينيه فى آخر المسرحية ، كان كفيلا بحل أزمة ديديه ومارى

جان إذ أن هذا الموت معناه أيلولة ثروتها إلى مدام سابين التي كانت تتحرق إلى هذه الثروة لكي تسدد منها ديون زوج ابنتها وبسدادها يتفادى ديديه إعلان إفلاسه ويستأنف أعماله الصناعية الواسعة دون حاجة إلى أن يعمل وكيلا لأعمال استانجي الأمريكي ودون حاجة إلى أن يسافر إلى أمريكا وأن تصحبه إليها زوجته مارى جان تاركة أمها المسكينة وحيدة حزينة . ولكن بول هرفيو لم يكن حريصاً على معقولية الأحداث وحتمية تسلسلها بقدر حرصه على تأييد قانون الحياة المزعوم ، بل كان حريصاً أيضاً على أن يظهر لا أخلاقية هذا القانون القاسي النابع من الغريزة وحدها ، وذلك بترك مدام سابين فى النهاية وحيدة حزينة رغم تضحيتها بنفسها وبأمها فى سبيل ابنتها الأنانية ، مارى جان . ولا أدل على ذلك من أن نرى بول هرفيو يحشد فى المسرحية عدة شخصيات أخرى ثانوية جانبية دخيلة على الحدث الأصلى لا لشيء إلا ليبرز اعتقاده فى وجود الاتجاهين معاً فى الحياة وهما الاتجاه الغريزى الذى لم يقتصر على تركيزه فى شخصيتى مدام فونتينيه الحريصة على مستقبل ابنتها والخائفة على الثروة التى ستؤول إلى ابنتها من أن يبددها زوج حفيدتها ، وشخصية

مدام سابين التى ضحت بنفسها وبأمها فى سبيل ابنتها . ثم حشر أيضاً شخصية الفتاة بياتريس المدللة وأمها مدام جربير التى تضحى بكل ما تملك لإرضاء نزوات ابنتها كما حشر فى المسرحية أيضاً شخصية الفتاة ليونى وأمها مدام پونتيون وهى الأخرى أرملة شابة ولكنها لا تتردد فى أن تنافس ابنتها على خطيبها وتحاول انتزاعه منها وذلك لمجرد حرص المؤلف على إبراز وجود التيار المضاد فى الحياة وإن يكن ظهور هاتين الشخصيتين الثانويتين قد كان خاطفاً ولم نعرف ما تم فى الصراع الذى لمحناه بينهما .

وهكذا يتضح لنا كيف أن سيطرة الفكرة أو الرسالة على المؤلف قد ساقته إلى كثير من الافتعال فى الأحداث وفى الختام الذى اختاره لها وذلك بالرغم من عثور المؤلف على أساس الصراع الدرامى الذى كان من الممكن أن يزيد من معقولية البناء الدرامى فى هذه المسرحية مع تمكين المؤلف من إبراز فكرته فى الوقت نفسه . فتغلب الغريزة على السلوك البشرى لم يكن يمنع من أن يجرى صراعاً بين هذه الغريزة وبين الاتجاه الأخلاقى المضاد أو على الأقل بين غريزة حب الذات وغريزة حب النوع ممثلة فى حب الأم لابنتها وبخاصة

أنه قد أشعرنا من خلال الحدث الأصلى ومن خلال الأحداث والشخصيات الجانبية بوجود كل هذه الاتجاهات فى الحياة ، فمدام بونتيون ترمز للأنانية أى لحب الذات عندما تنافس ابنتها ليونى على خطيبها بينما تتفانى مدام جربير فى حب ابنتها المدللة بياتريس والتضحية بحياتها فى سبيلها وإذن فلماذا لا نحس بصراع يجرى فى نفس مدام سابين بين حبها لابنتها مارى جان وعطفها ورعايتها الواجبين لأمها مدام فونتينيه وفى كل هذا ما يقدح فى بناء هذه المسرحية بالرغم مما يزعمه النقاد الفرنسيون من أن بول هرڤيو كان يجيد حبكة البناء الدرامى على نحو يدنيه من الكلاسيكيين .

بول هرڤيو

والآن لا بد أن القارئ قد اشتاق إلى أن يعرف شيئاً عن هذا المؤلف متى ولد ومتى مات وما هى الفنون الأدبية التى عالجها وما هى فلسفته العامة فى الحياة ومدى توفيقه فى التعبير عنها تعبيراً فنياً ؟

ولد بول إرنست هرڤيو فى ضاحية نيبى سير سين

بالقرب من باريس سنة ١٨٥٧ ومات فى باريس سنة ١٩١٥ أى فى الثامنة والخمسين من عمره بعد أن انتخب عضواً فى الأكاديمية الفرنسية سنة ١٩٠٠ وقد ابتدأ حياته محامياً : ثم عمل سكرتيراً فى السفارة الفرنسية فى المكسيك ولكنه استقال من وظيفته فى سنة ١٨٨١ لكى ينقطع للأدب فنشر تحت الاسم المستعار « إلياسين » يوميات وقصصاً إخبارية تجلى فيها حرصه على أن يبرز فى كل شىء قسماته المميزة ، وذلك بأسلوب خاص يمتاز بالتركيز الشديد على نحو ما يتضح من كتبه « ديوجين الكلب » سنة ١٨٨٢ و « الغباوة الباريسية » سنة ١٨٨٣ و « الألب السفاج » سنة ١٨٨٥ ثم انتقل إلى فن الرواية فكتب « الشخص المجهول » سنة ١٨٨٦ وهو يحتوى على دراسة مذهلة لرجل مجنون ، ثم رواياته الأخرى مثل « مغازلة » سنة ١٨٩٠ و « أشخاص يصورون أنفسهم » و « المعدات » وكلها روايات تصور الحقارة والانحلال المختفيين خلف المظاهر البراقة للطبقة الارستقراطية وتحلل كل ذلك تحليلا دقيقاً عميقاً .

وللمسرح كتب هرفيو « الأقوال تبقى » سنة ١٨٩٢ عن مساوئ النميمة و « الكماشة » سنة ١٨٩٥ و « قانون الإنسان » سنة ١٨٩٧ وكلها مسرحيات ذات رسالة عن الطلاق . ثم سلسلة من المسرحيات المتحررة إلى حد ما من طابع المسرحيات ذات الرسالة ومن بينها « سباق المشاعل » سنة ١٩٠١ و « اللغز » فى العام نفسه و « التيه » سنة ١٩٠٣ و « اليقظة » سنة ١٩٠٩ و « اعرف نفسك » فى العام نفسه و « شيء تافه » سنة ١٩١٢ و « القدر سيد » سنة ١٩١٤ وفى كل هذه المسرحيات يصور أنواعاً من الصراع بين الأفكار والمشاعر تستهدف إبراز حقائق عامة وملاحظات أو دروساً أخلاقية جميلة وإن كان الأساتذة ونقاد الأدب يختلفون فى القيمة الفنية لكل هذه المسرحيات . فمنهم من يراها محكمة البناء ، ومنهم من يراها مخلخلة . بل يراها مفتقرة إلى الشخصيات المصورة الأبعاد تصويراً كاملا دقيقاً فضلا عما يراه البعض من أن الحقائق العامة التى حرص على إبرازها لم تعد جديدة بعد أن أصبحت من البديهيات المعروفة فى ضوء التقدم العلمى والثقافى الحاضر ؛ ولكن أحداً لا يستطيع أن

ينكر جمال تعبيره على نحو مباشر واضح خال من كل غموض أو التواء أو زخرفة لفظية خاوية .

وعلى أية حال فأكبر الظن ، أن مسرحية سباق المشاعل ، هى خير إنتاجه ، وأجدر بالخلود والانتشار بين شعوب الأرض قاطبة .

محمد منصور

شخصيات المسرحية

هارافون	دار ...	هاملين ريقيل ابن هارافون
ستاسي	صديق هاملين	مدام لوشنيه الأرملة
الطبيب		ماري يهات ابنة مايجه الأسنة
دوبيه هارافون		مدام بوبلنون
جربير		لبوف
جهريان		مدام جربير
كوستان		جاليو

بباتريس

الفصل الأول

المنظر ـ غرفة استقبال

[باقات من ازهر تضفى على الغرفة جو حفل خاص . إلى اليمين باب يؤدى إلى ممر . . إلى اليسار باب يؤدى إلى حجرة تستخدم للتدخين . . نلمح فى آخر الغرفة جماعة من الناس يلتفون حول مائدة عليها المرطبات]

المشهد الأول

مدام فونتنيه ـ ديديه

[عند رفع الستار نشاهد مدام فونتنيه جالسة على مقعد تقرأ جريدة ما بمنظار ذى مقبض . . يدخل ديديه من الباب اليسار] .

مدام فونتنيه : آه ! أهو أنت يا عزيزى ديدييه . . هل تركت هؤلاء السادة فى غرفة التدخين ؟

ديدييه : وأنت يا مدام فونتنيه . . . هل تدرسين تقلبات الأسعار فى البورصة ؟

مدام فونتنيه : كلا ! مطلقاً ! ولا أريد أن أفهم فيها شيئاً : : ستبقى أوراق دائماً كما تركها

المرحوم زوجى العزيز ، كما ترى ، لا أستطيع أن أمس شيئاً مما تركه . وإذا رأيتنى فى صحبة جريدته [وهى تشير إلى الصحيفة الممزقة] انظر . . . إن الجريدة لا تزال جريدته ، فأنا أجدد الاشتراك دائماً باسمه . فإذا حافظت على بسط صفحات هذه الجريدة كل مساء . فذلك لأنه كان يقرؤها لى فى مثل هذه الساعة ، ونحن وحيدين معاً . والآن ، أنعزل فى الصمت لأسترجع بعينى رنة صوته مرة أخرى [تطوى الجريدة من جديد] لكن . . لنتحدث عنك يا بنى . بعد دراستك اللامعة ، وشهاداتك العالية كيف لم تؤثر عملا مضموناً فى الحكومة ؟ ومع كل ، كان أمامك مثل والدك لتنسج على منواله .. هذا السيد مارافون الطيب ، يتمتع اليوم بمعاش محترم ، وما زال يفيض

قوة وصحة وعافية ، بعد ثلاثين عاماً من العمل الدائب فى التربية والتعليم . وهو يعيش اليوم بين كتبه وأصدقائه ينظر إلى العالم بعين فيلسوف . ألم تغرك حياة كحياته ؟

ديديه : لقد بذل والدى جهده يا سيدتى ، وعلىّ أن أبذل جهدى . إنه ابن فلاحين ، لكنه استطاع ، بنشاطه وعقليته الممتازة أن يرتفع بمستواه إلى مستوى طبقة البرجوازيه . وإنى لأستشعر فى نفسى دائماً ، دفعة قوى الذين بدأوا من الحضيض منذ جيل . . فثمة شىء يجعلنى أريد بدورى ، أن أصل إلى ما هو أرفع ، وأن أرتقى إلى ما هو أعلى .

مدام فونتنيه : أعلى من طبقة البوچوازية ؟ إيه ؟ ماذا ؟ أتعد نفسك لتكون نبيلا ؟

ديديه : نعم . . تقريباً . . أريد أن أصبح ثرياً .

فالمليونير فى طبائع عصرنا ، يستطيع أن يكون بارونا أو كونتاً .

مدام فونتنيه : وهل تظن أن لديك إمكانيات تتيح لك الحصول على ثروة ضخمة ؟

ديديه : إننى حائز على شهادة من أرفع درجة ، وقد سلمنى أبى كل ما كنا نمتلكه معاً من ميراث أمى . وكان هذا النصيب المتواضع أساساً لعقد شركة ممتاز . . لمصنعى الذى سيفتح أبوابه قريباً .

مدام فونتنيه : وإذا لم تنجح ؟

ديديه : لا أنجح ؟ الدراسات التمهيدية لا جدال فى نتائجها . . والنفقات والدخول والأرباح المقبلة . حسبنا حسابها كلها . . وقدرنا كل شىء . . الأرقام هى الأرقام . . وورائى بعض أصحاب المصارف بنظراتهم الشاملة . . قالوا لى : « تقدم . . واليوم الذى ستحتاج فيه الشركة إلى مضاعفة

رأسمالها ، من أجل التوسع مثلا ، لن يكون على إلا أن أشير إشارة واحدة ، لأحصل على رءوس أموال جديدة . هذا أمر مفهوم . . ومتفق عليه ضمناً ثم إننى ، فوق هذا وذاك . على يقين من أن النجاح نصيب من يعرفون كيف يستحقونه بالعمل، والمقدرة، والنزاهة . . أتبتسمين ؟

مدام فونتنيه : أبتسم عطفاً . . : فإنه ليسرنى أن أرى حماسك الفتى ، وإيمانك المشتعل . إننى أبتسم لك كما يبتسم المرء لنار جميلة مضيئة فى الحجرة ، عندما يعود من جو بارد . . وأنا أشعر بالشتاء فى نفسى منذ وقت طويل . كنت لا تزال طفلا عندما بدأت مصائبى بسبب ضياع ثروة زوج ابنتى . لكنك لا بد تذكر أن ابنتى رجعت إلى هذا البيت فى ثياب أرملة ، وقد أنهكتها الدموع ، وعلى ذراعيها طفلة

يقيمة شاحبة كل الشحوب .

ديدية : ثقى يا سيدتى أننى لا أنسى أيا من الأحزان أو الخسائر المعنوية والمادية التى أصابتك فى ذويك ، ومع هذا فكلما أتأمل بيتك وهو فى حالته الراهنة اليوم ، فإننى أحس بالأثر الذى يتركه فى مكان مبارك . فأنت كجدة ،وابنتك مدام ريشيل ، وحفيدتك الآنسة مارى جان : أنتن ثلاثتكن بحياتكن معاً فى هذا الانسجام الحانى . . تبدون لى وكأنما تحققن مشتركات رمزاً للأسرة ، وللإنسانية السامية . إنكن تمثلن لى ثلاثياً رائعاً لأجيال ثلاثة .

مدام فونتنيه : نعم ، لأكونن جاحدة إذا لم أشكر الله على أن هيأ لى الوسائل لأهيئ حياة مريحة لهاتين الابنتين الطيبتين اللتين تعيشان معى .

ديديه : اسمحى لى أن أقول لك مع هذا ، إنك تتمتعين بالموهبة التى تجعلك موقرة عزيزة

على كل من يدنو منك .

مدام فونتنيه : يا لك من متملق !

ديديه : عنـــدما أسمع مارى چان [متداركا] الآنسة مارى چان ، تتحدث عنك . . ما أعذب حديثها عنك .

المشهد الثانى

[الشخصان السابقان – مارى چان معها من آخر الغرفة تحمل فى كل يد فنجان شاى]

مارى چان : جدتى : شاى أم كاكاو ؟

مدام فونتنيه : [ذاهبة] إننى ذاهبة فى هـــذا الاتجاه يا صغيرتى ! قدمى لديديه . . أتركك معا لتتحدثا فى حرية . . عنى ،

[تخرج مدام فونتنيه من صدر الغرفة]

المشهد الثالث

[مارى چان – ديديه]

مارى چان : أى فنجان تريد ؟

ديديه : [وهو يأخذ أحد الفنجانين] الأمر لدى سيان . .

مارى چان : لقد بدا على جدتى أنها تسخر منا . هل جعلتها تحدس شيئاً ؟

ديديه : كلا ! فقد أمسكت بزمام أمامها . بناء على أمرك . كما أننى لم أكف ، وفقاً لأمرك ، عن السيطرة على نفسى أمام أى كذلك . لكننى أشعر بفورة غليان فى نفسى ، فمنذ سمحت لى أن أبوح لك بنيتى فى الزواج منك ، حددت بنفسك التاريخ الذى تستشيرين فيه أمك . وهذا التاريخ هو اليوم الذى تدخلين فيه عامك الثامن عشر . واليوم تدخلين عامك

الثامن عشر يا مارى چان . ولم أعد أستطيع الانتظار أكثر من ذلك . ولا وجود الآن لهذا العائق الذى أقتيه أمامى .

مارى چان : يا عزيزى ديديه ! إذا كنت قد أبقيت حديثنا سراً فيما بيننا بعض الوقت . فذلك لأننى لم أرد أن أتسرع خشية إزعاج أمى ، لأن التسرع قد يجعلها تصف قرارى بعدم التروى . أما الآن فسيكون من حقى أن أجيبها بأننى قد استشرت كل ما أملك من عقل وقلب .

ديديه : أوه ! إنك لم تسمحى لى حتى الآن إلا بالقليل من الأمل . هل قدرت جيداً ما ينطوى عليه كلامك من معنى نهائى وارتباط صريح .

مارى چان : إننى أنقاد فى الواقع إلى شىء من التطير بإعلانى قراراً قبل الوقت الذى يجب أن أعلنه فيه . وبرغبتى أن أجعل زواجنا

يبدأ منذ الآن ، إذا صح هذا التعبير .
نعم أذكر في عيد ميلادي منذ طفولتي ،
بقدر ما تعي ذاكرتي ، أذكر أنه يحتفي
بي في هذا اليوم بالهدايا والزهور وسط
دائرة من الأصدقاء . نعم ، اعتدت
أن انتظر عودة هذا اليوم كيوم سعد .
وهذا هو السبب في أنني اخترته دون غيره
من الأيام ، لكي أصبح فيه زوجة لك .
وهذا هو السبب أيضاً في أنني لم أتردد
في اندفاعي نحوك بذلك .

ديديه : جعلتني أجن من الفرح . وددت
لو جثوت على ركبتي ، وصحت بأعلى
صوت معلناً سعادتي !

ماري جان : صه ! الليلة ، بعد أن ينصرف ضيوفنا ،
سأتحدث إلى أمي حديثاً يقنعها .

ديديه : أما أنا فسأرحل في الحال .

ماري جان : من ذا الذي يستعجلك ؟

ديديه : آه ! لست بمستطيع فى مثل تلك الساعة أن أتحدث إلى أحد . بل إننى لسوف أشعر بالرغبة فى دفع كل ثقيل يظهر أمامى فجأة ، إننى أحملك فى قلبى ؛ وسأكون معك أكثر مما لو بقيت هنا . سأكون معك وأنا وحدى فى الطريق أسير على غير هدى فى سكرة الأمل . . والمخاوف !

مارى چان : لا تخش شيئاً . فأنى تحبك حقاً ، وأنا أحبك .

ديديه : يا مارى چان ، اقسمى لى . . إننا سنكون زوجين قبل مضى شهرين .

مارى چان : نعم ، نعم !

ديديه : إلى لقاء قريب .

مارى چان : إلى غد . .

[يقبل ديديه يدها ويخرج من اليمين] .

المشهد الرابع

[مارى جان – وليونى مقبلة من الصدر وهى ترتدى مشداً مرتفعاً ومئزراً « جونلة » متوسطة الطول] .

ليونى : كنت أبحث عنك لأتحدث معك قليلا قبل أن أنصرف .

مارى جان : كيف يا ليونى ! أيمكن أن تنصرفى الآن ؟

ليونى : تعلمين كم تتعجل أمى دائماً الذهاب إلى الحفل الراقص . لو توقف الأمر على فحسب . لاختلف ذوق عن ذوق الناس . . بمثل هذه الملابس . . مع أننى فى طريق الزواج لكثرة ما رقصت فى هذه الحفلات . . ولكن يالها من مذلة . إذ أضطر أن أشرح لكل من يراقصـــنى . أننى سأبلغ عما قريب

التاسعة عشرة ، تشير إلى بلوزتها المقصولة]

لا شيء يظهر !

ماري جان : عليك أن تعلني ، ما دام الأمر كذلك — أنك تؤثرين البقاء في المنزل .

ليوني : أبي يمنعني من ذلك . وهو يحرم على أمي أن تخرج ليلا بدوني !

المشهد الخامس

[ماري جان — ليوني — مدام بونتيون ، في زي أصغر من سنها ، جيربان] .

ماري جان : [باشارة خفية إلى ليوني وهي تشير إلى الشخصين الداخلين من صدر الغرفة] ألم يطلب السيد جيربان حتى الآن . يدك من مدام بونتيون ؟

ليوني : إنه لا يجرؤ . . أتصدقين . . إن أمي تجعله لا يستطيع حراكاً !

[تستمر ماري جان وليوني في الحديث بصوت خافت] .

مدام بونتيون : [فى دلال رائد إلى جيربان] فى تصرفاتك بعض شىء من الغموض والخجل ، يسحرانى . تشعر النساء بانسياق نحو الرجال الذين يبدون نحوهن احتراماً . . احتراماً فائقاً . . أما أنت فيخيل إلى دائماً أنك تتأهب لتصرح لى . . لا أدرى بماذا . . وأن ثمة شعوراً رقيقاً يمنعك عن هذا التصريح . لست أطلب إليك أن تطلعنى على أفكارك . فقد أضطر إلى أن أغضب عليك إذا عرفتها .

جيربان : أوه ! سيدتى إننى لا أفكر إلا فى أن أبعث فى نفسك أكبر ثقة بى . ولكن مهما يكن حرصى على أن أدعى إلى البيوت التى أضمن أنك ستصحبين ابنتك إليها ، فإن أحاديثى معك دائماً قصيرة . . برغبتى .

مدام بونتيون : أتتخيل وسيلة نستطيع بها أن نلتقى بطريقة أخرى !

جيربان : اسمحى لى أن أتردد على منزلك . . اقبلينى أولا . . صديقاً . .

مدام پونتيون : وبعدئذ ؟

جيربان : وبعدئذ ، فى يوم من الأيام . . إذا تنازلت ووافقت ، استقبلينى على أننى الزوج المقبل لابنتك .

مدام پونتيون : [منيظة] أرجوك ؟ أنت ؟ ابنتى ؟ معذرة . . إننى لم أعتد بعـــد توقع ذلك . لا أدرى ما أقول لك . . إننى لا . . إننى . .

المشهد السادس

[السابقون – بياتريس داخلة من صدر الغرفة فى ثوب فاخر لفتاة تنال كل ما تشتهى]

مارى جان : وأنت أيضاً يا بياتريس . . أتذهبين إلى نفس الحفل الراقص الذى ســـتذهب إليه ليونى ؟

بياتريس : سأذهب إلى حفلين ، ولدى ثلاث حفلات عداً .

المشهد السابع

[السابقون – مدام جريبير تدخل من صدر الغرفة فى زى بسيط للغاية]

مدام جريبير : يا عزيزتى ماري چان ، هل تتفضلين بإخبارهم بأن يعدوا معطف بياتريس حتى لا تصاب بالبرد عند خروجها إلى البهو ؟

ماري چان : إننى داهبة لأفعل ذلك يا سيدتى !

مدام پونتيون : [إلى ماري چان] أثناء ذلك ، اهتمى أيضاً بمعطفينا .

ماري چان : نعم يا سيدتى .

[تخرج من اليمين]

المشهد الثامن

[مدام پونتيون – ليونى – مدام جريبير – بياتريس]

بياتريس : [إلى مدام جريبير] أمى : اصلحى تصفيف شعرى . . بعض الشىء .

مدام جريبير : أنت على حق يا ملاكى . . اجلسى هنا . . .

[تجتهد مدام جريبير فى إصلاح زينة ابنتها]

مدام پونتيون : [إلى ليونى] انظرى إذا كان ثوبى لائقاً . . اجعليه مستديراً . . اركعى على ركبتيك .

[تهم ليونى بثوب أمها]

المشهد التاسع

[نفس الأشخاص – سابين]

سابين : [متحدثة إلى مدام پونتيون وابنتها] هل من خدمة أؤديها ؟ . .

مدام پونتيون : شكرا . . . ابقى هنا . .

سابين : [متحدثة إلى مدام جربير وابنتها] وأنتما . .

بياتريس : شكرا سيدتى . فها هى أمى ! . .

سابين : [إلى مدام جربير وهكذا يا صديقتى العزيزة . . هذه الليلة أيضا . . ستقضينها على مقعد صغير ، ساهرة متثائبة حتى الصباح .

بياتريس : آه ! والدتى تعرف جيدا كيف تدبر أمرها لتنام فى ركن ما . .

مدام پونتيون : [إلى سابين] ستتركك .

سابين : [إلى مدام پونتيون] لا تنسى أن تستأذنى أمى فهى شديدة العناية بالآخرين ، وشديدة الانتباه لنفسها .

مدام پونتيون : [إلى سابين] لم أكن لأقصر فى هذا . . إلى اللقاء يا صديقتى العزيزة . . تعالى يا ليونى .

ليونى : [إلى سابين] إلى اللقاء يا سيدتى .

[تخرج مدام پونتيون وليونى من صدر الغرفة]

المشهد العاشر

[سابين – مدام جريبير – بياتريس]

مدام جريبير : [مشيرة إلى بياتريس] هل أطربت عقدها اللؤلؤى الجديد ؟

سابين : أنت مجنونة ! كم كلفك هذا أيضا ؟

بياتريس : لا شيء ! لقد استبدلته بما كان لدى من حلىّ

سابين : [تقبل الاثنتين الواحدة بعد الأخرى] حاولى على الأقل أن تحتفظى بجلدك على عظمك [إلى بياتريس] استمتعى بالحياة أيتها الفتاة الجميلة المدللة . . المدللة للغاية !

مدام جريبير : [مشيرة إلى غرفة التدخين] لا تدعى زوجى يبقى طويلا فى منزلك ، فلديه عمل كثير على مكتبه . .

سابين : كيف ؟ ألا يجد السيد جريبير الراحة فى لياليه أيضا ؟

مدام جريبير : [تشير إلى بياتريس] حسنا : والباقة !

[تخرج مدام جريبير وبياتريس من ناحية اليمين]

المشهد الحادى عشر

[سابين – مارافون داخلا من اليمين]

سابين : [وهى تشير إلى السيدتين الخارجتين] آه ! يا عزيزى مارافون قل لى بعد ذلك إن لى هنا صديقة غريبة !

مارافون : أتعنين مدام جريبير ؟

سابين : ألاحظت أنها اتخذت مظهر مربية أطفال . إنها تقوم بهذه المهنة ، ولم يعد لها وجود شخصى ، ولم يعد فى استطاعتها أن تمتلك شيئا لنفسها . . فكل شىء لإبنتها ، وفى مقابل ذلك يستنفد الوالد قواه ليفى بما تتطلبه زينة بياتريس من نفقات . أما هذه الفتاة التى تتربع على عرش فوق مناكب أبيها وأمها . . إنها لتبدو لى كصنم بغيض إلى حد ما .

مارافون : إننى لا أشـــاطرك رأيك يا صديقتى

العزيزة . إذ أننى على العكس ، أجد متعة أمام هؤلاء الأشخاص الطبيعيين فى سذاجة . أجد متعة فى أن أرى أبسط أجزاء الآلة العائلية وهى تعمل : إن هؤلاء القوم يخضعون للقانون الذى يبدأ بأن يطالب الأم بأن تبذل من دمها . وفى أحيان كثيرة ، من جمالها وصحتها بل وحياتها إذا اقتضى الأمر لكى توجد طفلها من كل هذا . ثم نرى الطبيعة تجاهد فى تجريد الجيل السابق لصالح الجيل الجديد . فهى لا تنفك تأخذ من الآباء — على صورة تنفقات ومجهودات وقلق وهبات وتضحيات — كل ما تبقى لديهم من قوى حية ، لتزود بها الهابطين إلى سهل المستقبل ، وتسلحهم ، وتحصنهم ، وتزينهم . انظرى إلىّ عندما كان الأمر يتعلق بتهيئة مركز لابنى . . لم يلبث

ديديه أن أقنعنى بأن ثروتى خليقة أن تستغل منذ الآن استغلالا أفضل بين يديه .. بعد أن بلغنا مبلغ الرجولة . ولكى أبين لك أن مدام جريبير وابنتها تسيران مع التقاليد القديمة ، اسمحى لتعالم رجل قديم من رجال الجامعة . أن يستمد حجته من الأقدمين ..

سابين : كن على سجيتك !

مارافون : إنك لم تسمعى دون شك عن « أعياد المشاعل » ، سأفصل لك الأمر : كان المواطنون يقفون لهذه المناسبة الجليلة متباعدين ، مكونين ما يشبه السلسلة فى أثينا . كان الأول يوقد شعلة من المذبح ، ويعدو فيسلمها إلى ثان ، وهذا يسلمها بدوره إلى ثالث ، وهكذا تنتقل الشعلة من يد إلى يد . كل متسابق يعدو دون أن يلقى نظرة خلفه ، فليس له من غاية إلا المحافظة على الشعلة التى معه وأن

يسلمها بعد ذلك ، فى الحال ، إلى واحد غيره . وبعد أن يتخلى عنها يقف : رغم أنه لم يعد يرى إلا الضوء المتدس يسرى بعيداً عنه . فإنه يظل يحرسه على الأقل بعينيه ، بقلقه العاجز وبكل أمانيه . هذا السباق هو صورة لأجيال الحياة نفسها . ولست أنا الذى أقول بذلك : بل يقول به صديقاى القديمان جداً : أفلاطون والشاعر الطيب لوكريس .

سابين : إننى لا أتصور الصلات العائلية على هذا النحو . فتقبل الحياة فى نظرى يفرض واجبات كالتى يفرضها إعطاء الحياة . هناك شىء متماثل ومشترك . رباط وحيد يوازن بين الالتزامات . فما دامت الطبيعة لم تهيئ للأبناء أن يصنعوا أنفسهم بأيديهم . فأقول إن الطبيعة قد فرضت عليهم ديناً نحو الذين أنوا بهم إلى الدنيا .

مارافون : إنهم يسددون هذا الدين ، بأن ينجبوا أبناء بدورهم .

سابين : إنهم يسددونه بالبر بالوالدين ، ويبدو أنك تنسى الكثير مما أثمر هذا البر من أعمال بطولية .

مارافون : آه ! . . . اينيوس إذ حمل أباه على كتفيه أثناء حريق طروادة ! لكن رجال المطافئ يعملون فى كل مناسبة العمل نفسه مع أناس لم يروهم قط . ومـــدام دى سومبرى التى شربت كوباً من الدم البشرى لتنقذ حياة المركيز ؟ ولكن من ذا الذى لا يتغلب على لحظة مقززة كهذه ليجنب بوابه الذبح ؟ ولقد أشاعت الرسوم أيضاً بين الناس ، وفاء امرأة كان أبوها العجوز يموت جوعاً فى السجن ، فدلفت إليه وقدمت له ثديها يرضعه . ومن هى المرضع التى ترفض أن تخفف آلام الأسر

على كتيبة بأكملها . . بطريقة مماثلة ؟

سابين : ما أيسر المزاح دائماً !

ماراڤون : اذكرى لى أعمالا سامية حقاً !

سابين : إننى أفتقر إلى مثل معلوماتك .

ماراڤون : ألا ترين الإنسانية تجاهد لتقنع نفسها أنها ليست بالإبنة العاقة . ولكن هكذا كانت منذ مولدها ، كما كانت منذ مولدها أماً رءوماً كذلك . أعيدى وصايا سِنَّا : لن تجدى فيها كلمة واحدة عن واجبات الإنسان نحو بنيه . لماذا ؟ لأن ذلك أمر لا غناء فيه . فالمخلوقات جميعها ، تعنى بأولادها بغريزتها . أما الواجبات نحو الوالدين ، فهذا أمر لا بد من الوصية به : « أكرم أباك وأمك لتعمر طويلا فى الدنيا » : وليس هذا أمراً فحسب . إن فيه الإغراء ، فيه الوعد بربح يحقق ابتداء من هذه الحياة الأرضية . صدقينى إن

عرفان الأبناء بالجميل ليس شيئاً تلقائياً .
إنه مجهود من مجهودات الحضارة ،
ومحاولة واهية من محاولات الفضيلة .

سابين : اسمح لى أن أعارضك مستندة إلى حالتى بالذات ، وأنا أعيش بين أم وابنة . . وأظن أنه يمكننى أن أقول ماذا يعنى حب المرء لابنه !

مارافون : قولى أيضاً إن حبك لابنتك يبلغ الكمال .

سابين : بالاختصار ، إذا كنت أنقد بعض ألوان المبالغات لدى بعض الأمهات ، فهذا لا يمنعنى من أن أشعر بأننى سأضحى بحياتى دون تردد لأجنب مارى چان آلاماً حقيقية . ولكننى أعز أمى أيضاً ، دون أن ألجأ إلى هذا المجهود العقلى الذى تزعم ، وإننى لأهب حياتى كذلك لإنقاذها من أى خطر . . كن واثقاً من ذلك .

مارافون : يا لله ! إنكن هنا ثلاثة قلوب ممتازة ،

تحيط بها أوهام سعيدة . وإن كلا منكن لتحسب أنها تعرف الأخرى ، بينما هى لا تعرف حتى نفسها . إنك تجهلين قدرك كأم ، وستجهلين دائماً ، كما أرجو ، الشيء القليل الذى تساوينه كابنة . وهذه أمور لا يتعلمها المرء فى هناء الانسجام ، ولكن فى المحن العنيفة . . يتعلمها فى الصرخة المنتزعة من الأحشاء .

المشهد الثانى عشر

[السابقان — مدام پونتيون — ليون]

[ترتدى كل من الأم وابنتها معطفها وكل ما يفعلانه هو عبور المسرح من باب الصدر إلى باب اليمين]

مدام پونتيون : إلى لقاء قريب ! .

المشهد الثالث عشر

سابين — مارافون

سابين : وهذه ، أرجوك أن تحدثنى عن صرخة

أحشائها . ما الذى تصنعه وفق قانونك الطبيعى ؟ أهى أم تضحى بنفسها ؟ أم هى ابنة ضُحِّى بها ؟ من منهما التى تحمل الشعلة ؟ على حد قولك .

ماراڤون : أنا لا أنكر الشواذ . وأعرف أن شعلة الأمومة تخبو أحياناً عندما ترى المرأة التى تعيش فى الملذات طفلها وقد نما وكبر . غير أن مثل هاته السيدات يكن خير الجدات غالباً . وما أكثر ما رأيت من سيدات متدللات ، وإن تقدم بهن السن . يسعدن بهذا التجدد إذ يصبحن فجأة جدّات ! . . ولكن هاهو ذا السيد جريبير سأترك له مكانى . وسأذهب لأستأذن مدام فونتنيه .

[يخرج ماراڤون من الصدر]

المشهد الرابع عشر

[سابين — جريبير داخلا من اليسار]

سابين : أهكذا يا سيد جريبير ، لا تظهر إلا

فى اللحظة التى يوشك ألا يبقى فيها أحد ؟

جريبير : لست الأخير يا سيدتى . فالسيد ستانجى يدخن وحده ، وعيناه تحلقان فى السقف . بل هو الذى أسرنى بما قصه على من طريقته الأمريكية فى فن التنقل . فمثلا ، لن يعود هذا المساء إلى بيته ليرتدى ثياب السفر .

سابين : [بمجرد حب استطلاع] تقول إنه راحل هذا المساء . . إلى أين ؟

جريبير : سيعود إلى أمريكا .

سابين : [باضطراب] كيف ؟ لم يحدثنى بشىء من هذا . . مستحيل ! .

جريبير : عفواً . سيذهب عما قليل لينام فى عربة النوم . وسيجد فى حقيبة يد ، حلة الليل ، ليغير ملبسه فى الوقت المناسب ، بحيث ستريته يخرج من غرفة استقبالكم قاصداً مقاطعة لويزيانا ، وقد ارتدى

حلة سوداء ، ورباط عنق أبيض .

سابين : [عصبية جداً] أود لو رأيت ذلك .

جريبير : أما أنا فلا أزال على العادة الفرنسية القديمة ، وهى أن ألبس فى القطار ، أبلى ما عندى من الملابس وأشدها اتساخاً . [وهو يتأمل كيه] وهذا يتيح لى فى الواقع أن أسافر فى ثوب رسمى . هكذا حال من تكون له ابنة جميلة ، عليه أن يربيها ويزوجها ٥ ٥

سابين : [نافدة الصبر] لقد خرجت زوجك وابنتك منذ فترة طويلة ٥ ٥

جريبير : وسأخرج أنا أيضاً . [يخرج من باب اليمين]

المشهد الخامس عشر

[سابين — ستانجى داخلا من اليسار]

سابين : أخبرت أنك آت لتودعنى . وأنك ذاهب إلى أمريكا !

ستانجى : نعم . : أنا راحل . .

سابين : أجاد أنت ؟

ستانجى : جاد للغاية !

سابين : ولكن لماذا ؟

ستانجى : لم يبق أمامى إلا أن أعود إلى هناك ما دمت لا تقبلين أن تكونى زوجتى .

سابين : هل رفضت طلبك بخشونة ؟

ستانجى : أوه ! كلا ! دائماً فى لطف رقيق ! فى بداية الأمر ، كنت تحولين أحاديثنا إلى ذكريات العهد الذى أرسلنى فيه أهلى لأدرس فى فرنسا ، والذى كان فيه أهلك مراسلين لى . وكنت تتذرعين بذلك لتقولى لى إننى لما كنت صديقاً طيباً فيما مضى ، فإننى عرضة لأن أخطئ اليوم حينما أعتقد أننى أحبك حباً عاطفياً . وفى المرة الأخيرة التى سألتك فيها ، دافعت عن نفسك أمام اعترافاتى الملتهبة ، بأن

دعوتنى إلى معاودة التفكير دون أن تعدينى بشىء . ومهما كنت غبياً ، فقد فهمت مع الزمن أنك تبذلين جهداً لطيفاً فى إبعادى .

سابين : أفهمت ذلك ؟ ! على كل حال ، أعترف أنك تبغضنى الآن ! فلو لم تكن تستجيب للبغض ، لما قررت هذا الرحيل البالغ فى قسوته ، دون أن تخبرنى .

[1] ستانجى : لقد استجبت لشعور جبان . . . كان فى نيتى أن أغيب عن بلدى شهراً أو شهرين . . أى فترة أجدد فيها معرفتى بباريس . أما وقد وجدتك أرملة حرة مليئة بالإغراء .. فقـــد رغبتك فى الحال ، وأملت أن أصبح زوجاً لك فى الحال . وهأنذا منذ ما يقرب من عام أتوسل إليك ، ولكنك تؤلمينى .

سابين : عزيزى ستانجى !

ستانجى : وكلما كنت أهدد بأن ألجأ إلى بلدى ، كان حسبك ابتسامة واحدة أو إظهار تحديك لتهزمينى . وكنت أرجع عن عزمى خاضعاً مستسلماً ، وكنت غبياً . . وأدركت حينئذ أننى لن أثبت أبداً على قرارى بالخلاص منك ، إذا أنا أطلعتك عليه سلفاً . وفى لحظة الحزن العميق هذه ، أشعر مع ذلك بأننى قوى ، ليس فقط لأننى أعرف أننى سأرحل قبل مضى نصف ساعة ، ولكن لأننى قد ارتبطت بالتزام الرحيل كذلك .

سابين : وكيف ذلك ؟

ستانجى : عندما كنت أرجوك فيما مضى أن تربطى حياتك بحياتى . . أخبرتك بعزمى على بيع ما أملك من أرض لأصبح حراً وأستقر هنا حيث تلزمك بالبقاء هنا ، واجباتك وعواطفك وعاداتك .

سابين : أجل . . وبعد !

ستانجى : أما الآن . فقد اضطررت إلى أن أنشد النسيان فى نشاط يستحوذ على . فى عمل ضخم . فقد اتخذت الوسيلة لأزيد الأرض التى استغلها إلى ثلاثة أضعافها . فهناك ضيعة ملاصقة لأرضى ؛ ومعروضة للبيع بالمزاد فى مدينة أورليان الجديدة . والمشهور أنها غير قابلة للبيع لكثرة ما يتطلبه إصلاحها من مجهودات شاقة ونفقات باهظة . وقد فكرت فى أن مهمة شاقة كهذه لا أستطيع أن أتخلى عنها دون أن أصاب بكارثة . ستمنع عنى كل تردد فى العودة . . لقد تفاوضت فى شراء الأرض ، وفوضت من يقوم عنى بشرائها قبل أن يبدأ المزاد فى صبيحة الغد .

سابين : كنت أنصت إليك حتى الآن ، وأنا أظن أن الأمر يتعلق بغيبة قد تطول

أو تقصر . وكنت خليقة أن أذعن للأمر لأنه كان لى أمل فى المستقبل .

ستانجى : أى مستقبل ؟

سابين : تسألنى ! لا تكن قاسياً . انظر إلى ، إننى أبتسم لك . لقد زعمت أن فى هذه الابتسامة حجة لا تقاوم . . . اذهب إلى أقرب مكتب برق ، ستجد ولا شك مكتباً مفتوحاً طيلة الليل ، أرسل تعليمات جديدة تلغى بها تعليماتك السابقة ، وتحررك من التزاماتك ، وأمامك متسع من الوقت .

ستانجى : فى مثل هذه الساعة . . نعم . . ربما كان لا يزال لدى الوقت . . لكننى لن أغتنم الفرصة ، فأنا أريد أن أتحرر من مرآك الذى يعذبنى . . ومن جوارك الذى يسحرنى ويشل إرادتى ، والذى لا ينفك يجذبنى ، ولا ينتهى بى إلى شىء . كلا . لن تقهرينى بعد الآن .

سابين : آه ! إنك تضطرنى إلى أن أشرح لك الأمر ، وإلى أن أزيح القناع عن نفسى ، قبل الحدث الذى كنت أفكر فيه . . . هل بلغت أنا حقاً هـذا المبلغ من النفاق ، أو بالأحرى ، هل كنت أنت من العمى ، بحيث غاب عنك أن مشاعرى تتجاوب ومشاعرك ؟

ستانجى : ماذا ؟ هل يهمك أمرى ؟ أنت تحبينى ؟ هل قلت إنك تحبيننى ؟ أهـذا هو ما قلته حقاً ؟ .

سابين : نعم .

ستانجى : ما الذى تنهينه إلى ؟ ما الذى تقولينه لى ؟ أخيراً . .

سابين : اعترف لك بذلك ، لقد حاولت فى الواقع أن أحصل منك على مهلة بالرغم عنك . . لا تأخذ الآن فى لومى على إفراطى فى المراوغة ، ولا تحتقرنى !

ستانجى : آه ! يا عزيزتى . . يا عزيزتى . . تكلمى بكل ثقة ! .

سابين : تعرف أن من طبيعة النساء ألا يكن صريحات تمام الصراحة ، إلا حينما يعجزن عن أن يفعلن شيئاً غير ذلك .

ستانجى : ولكن ما هو عذرك فى إخفاء ما تنطوى عليه نفسك ؟ أكان ذلك اختباراً ؟ هل كنت تحسين بأنك لست واثقة فى ثقة كافية ؟

سابين : لا تخطئى فهمى . إن الاعتبارات التى خضعت لها ، لم تكن تخص أحداً غير ابنتى ، ولكنها ، لهذا السبب نفسه ، كانت اعتبارات مقدسة لدى .

ستانجى : لم أفهم شيئاً .

سابين : أوه ! يا ستانجى ، تمهل . . ابنتى التى ما زلت أنا كل شىء لديها فى هذه الدنيا . . إن روحها الفتية آخذة فى التفتح للمشاعر والإحساسات العظيمة . . ألم

يكن ثمة واجب على أن أدفع عن نفسى الإغراء بأن أضـــع ، فجأة ، غريماً فى وجهها ؟ كيف أعذبها بأن أظهر لها أن قلبى سيكون مقسما منذ الآن ؟ . . لم أجد من وسيلة أخرى غير أن أتهرب منك . كنت أتجنب الردود التى قد تسبب نفاد صبرك . كنت أتظاهر بالخفة بل بالبرود . ومرت الأيام والأشهر ، وعما قليل ستكون سنة كاملة . . وكنت آمل أن أصل على هذا النحو ، إلى تزويج مارى جان ، من غير أن أحتقلك . كنت كالعجائز الذين لا يقدرون أن نهايتهم قريبة . وعودت نفسى على ألا أتوقع نهاية حلمى . كنت أعيش . . وا أسفى ! كم من سنوات أضعتها من شبابى ! قد تجدنى بلا شك قليلة الإغراء إزاءك ، وأنانية حقاً ! . . لأننى لم

أحسب حساب السن التى تنزع منى : كل يوم . جزءاً من مفاتنى .

ستانجى : لا تخشى شيئاً . . إننى معجب بك دائماً . أما عن ابنتك فسأجتهد فى أن أكون لها زوج أم ترضى عنه .

سابين : أوه ! هى ! لم يكن عـلى إلا أن أستشيرها حتى أنال رضاها على زواجى منك . لكن فى هذا استغلالا لسذاجتها . فواجب الأمهات أن يصن عقول بناتهن العاجزة وبراءتهن من كل يقظة قاسية . كنت أتصور ألوان السعادة التى سأحرم منها مارى جان إذا أنا فصمت صلتها الوثيقة بى : قلبها وهى تفتحه لى صباح مساء ، ونحن فى غرفة نومنا ، فى ثيابنا الداخلية . . وذراعاها الطاهران اللذان تعرف منذ وقت بعيد أنهما وحدهما يعانقانى . . فهل كنت مستطيعة أن أكون أول من يخدش أرق ضروب

الحياء لدى ابنتى ، عندما أصدم بتحول
جبينها عنى فى خجل ، وبعتب برىء
غيور يلمع فى عينيها ؟

ستانجى : أيتها الصديقة العزيزة ! لقد نسيت
وأنت تتخيلين كل هذه الأمور ،
ما كنت أكابده ، بعد خروجى من
هنا . لقد كنت أظل فترة طويلة من
الليل أحوم فى جنون حول نوافذك .
ولكنك أحسنت إلى كثيراً منذ وهلة .
فلم أعد موضع الرثاء . ولن أشكو من
وساوسك رغم أنها جاوزت الحد .
وأنت تعلمين هذا ، لا داعى لذلك
الآن وقد تغلبنا عليها .

سابين : لم تعد تشك فى رغبتى أن أحمل
اسمك . . تستطيع الآن أن تدرك أى
دور طيب ، وأى شخصية لا يطاولها
أمل . تلعب فى حياتى التى لم تنل
نصيبها من السعادة ، والتى كان مقدراً

لها اولاك . أن تنتهى فى ظلام صامت . . وهى تخفى كل حاجتها إلى الحب . ولكن إذا كنت قد اعترفت لك بمدى إعزازى لك . فلا يحق لى أن أضيف إلى ذلك أننى أصبحت اليوم أكثر تحرراً مما كنت بالأمس .

ستانجى : الآن ، وقد عرفت أنك تحبيننى ، هل ما زلت ترفضين أن تستمهلينى ؟

سابين : لقد أطلعتك على سرى كله حتى تعاونى فى مهمتى . أعترف أنه من واجبى ألا أسىء إلى زواج مارى چان . . إنها الآن بنت وحيدة وفى هذا ثروة مكننى القدر من أن أكونها على نحو ما منذ مولدها ، فإذا جردتها منها . فأى عمل أكون قد ارتكبته حيالها ! إنها لم ترث شيئاً عن أبيها . . وسترث كل شىء عنى . إن مستقبلها دقيق محدد . إنه مكتوب هنا ، ومسجل

العقود يستطيع أن يعلن ما سيئول إليها فيما بعد . . ولكن متى تزوجت الأم ، فإنه ، وفقاً لتقاليد المجتمع ، تهبط قيمة البنت بمقدار النصف أو الثلثين أو ثلاثة الأرباع . . نظراً لما ينتظر أن تنجبه الأم من أطفال .

ستانجى : إن ثروتى أكثر بكثير مما تملكين ، فإذا أنجبنا ابنا أو عدة أبناء . . فإنهم سيرضون بها ولا شك ، وسأعمل بحيث لا ينقص ميراث ابنتك .

سابين : أعرف أنه يمكن لأشخاص أمناء مثلنا ، أن يتدبروا كل شيء يتفق والعدل . . حتى ولو كان ضد القانون ! ولو كانت مارى جان متزوجة ، فإنى على يقين أنى لو وضعت يدى فى يدك هذا المساء ، فلن أدع زوجها يتعرض إلى أية خديعة . لكننا لم نبلغ هـذه المرحلة بعد . فابنتى لا تزال تنتظر الزواج . .

غداً أو بعد غد . ولو انني تزوجتك في الحال ، أفلن يكون من واجبي أن أخشى عليها بعدئذ من وساوس ، قد لا يمكن التغلب عليها . وساوس تثور في نفس الأسرة التي قد تعزم مارى چان على الدخول فيها ! فقد يعترض هؤلاء الغرباء بأن الاتفاق الأولى بيني وبينك غير قانوني . وأن أولادنا فيما بعد ، سيجدون الوسيلة لمهاجمة إجراءات اتخذت من قبل . بل إنه لمن الممكن أن نغير رأينا ، أنا وأنت ، لصالح ولد صغير جديد : فإذا كانت مارى چان آنئذ متدلهة في حبها ؟ . . وإذا أبعد عنها حينئذ أهل خطيبها الذى يعزها ولدهم البار ! هل أراها حينئذ باكية ، وأتركها وحيدة لأنني وجدت أن حياتي مع رجل جميلة طيبة ؟ أم هل أوجهها إلى

زيجات أدنى مرتبة من تلك الزيجات التى
كنت حتى الآن أعدها بها ؟ كلا !
لا تطلب منى أن أتعرض لأية مخاطرة
تسبب لابنتى ضرراً أو حزناً أو أذى !
يا صديقى إننى أعرف كيف أدفع أخطاء
الحساسية المفرطة للأمهات . . . لكن
ما أقوله لك الآن هو مجرد إخلاص
أم . . لا تعـدنى آثمة . . ولا تنظر
إلىّ نظرتك الصارمة هذه !

ستانجى : إلى متى تريدين أن تعذبينى ؟

سابين : يا إلهى ! ها أنت ذا تعـود إلى
قسوتك . .

ستانجى : لقد أثبت لى بما فيه الكفاية أنك تحبين
ابنتك حباً يختلف تماماً عن حبك لى .

سابين : لم تعقـد المقارنات ؟ إننى أحبكما
كليكما . . أوه ! إصغ إلى . . كيف
أحدد لك موعداً ؟ لو قلت لك بعد
عام . . كذبت . بسبب ما أتمناه

لمارى چان ولصحتها . بل وبسبب
ما أتمناه لنفسى ، لو جرؤت على أن أقول

ذلك . فالنت لا يزيد عمرها عن سبعة عشر عاماً ! هل أستطيع أن أطرد الشذى الذى ينبعث إلى من هذه الروح الناصعة المزدهرة . لن تقبل أن أدفع قبل الأوان بابنتى بين ذراعى فتى ما ؟ لو رحلت عنى بدافع من نفسها ، لانفطر قلبى ! آه ! فلتكن قريباً منى حينئـــذ لتعيننى وتسرى عنى ، وتسكرنى . .

ستانجى : لن أحمل نفسى بعد الآن تباريح مذلة يصعب احتمالها ، لوقت غير محدود . إن روحى لتقطر دماً منذ وقت طويل ، عجلى بشفائها ، وإلا ذهبت لعلاجها بنفسى ، وفقاً للطريقة التى ابتكرتها .

خادم : [داخلا من اليمين] لقد وصـــل خادم السيد ستانجى الخاص ، مع عربة السكة الحديدية . .

سابين : آه !

ستانجى : [إلى الخادم] حسناً ! [يخرج الخادم] هاهو ذا السبب الثانى لحياتى ووجودى ، إنه يدعونى ، إنه بمثابة بعث لى ، وأنا ما زلت بعد فى شباب يتيح لى أن أولد من جديد بالعمل الذى يبعث الحياة والكرامة .

سابين : لا تخلق بيننا ما لا يمكن إصلاحه . أتوسل إليك . أرسل برقية !

ستانجى : إليك كلمتى الأخيرة : أريدك ، ولكننى لم أعد أريد أن أنتظرك .

سابين : أما أنا فمضطرة أن أجيبك دائماً نفس الإجابة : لو لم يكن هناك سوى احتمال واحد ليصبح زواجى عقبة فى سبيل زواج ابنتى ، فإنى أعد ذلك تجاوزاً للحد ، لأنه ، سيفسد ، بما ينطوى عليه من طعم الندم ، المتع التى تتوق أن تهبط على شفتى .

ستانجى : إذا اجتزت هذا الباب ؛ . وإذا لم يكن خروجى للذهاب إلى مكتب البرق ، والتخلى عن التزاماتى ؛ فكل ما بيننا سينتهى . لن يمكنك بعد ذلك أن تستدعينى من جديد . ولن أستطيع أن أعود . . سأكون فى بلچيكا فى طريقى إلى إنجلترة حيث سأركب الباخرة . . ولن تكون ثمة وسيلة لمنع الأمر الذى سيربطنى غداً صباحاً . . . على الضفة الأخرى من الأطلنطى حتى نهـاية حياتى . .

سابين : لقد أنهيت إليك كل ما أعتقده ، وكل ما أشعر به ، إنك تحطم قلبى دون أن تهدم الفكرة التى كونتها لنفسى عن واجبى ! . . ليس من حقى . . يجب على ألا أفعل ! . . لا أستطيع ؛ .

ستانجى : وداعاً ! . .

سابين : أوه ! لا ترحل بعد !

ستانجى : يجب أن أكون فى القطار خلال عشرين دقيقة . .

سابين : لا تتركنى بلا أخبار عنك ! ستكتب لى ؟ . ؟

ستانجى : لا خطابات ! لو بعثت إلى بشىء منها فلن أفتحها ، أريحى نفسك منى ، ودعينى أستريح منك ! .

سابين : ستعود ؟ سأراك ؟

ستانجى : أبداً .

[يبتعد] . .

سابين : أوه ! أوه ! ستانجى ؟

ستانجى : [على استعداد للعودة] ماذا ؟

سابين : [بعد صراع داخلى] كلا ! فى الواقع : . لا شىء . . [تتهاوى على مقعدها] أوه ! مارى چان !

[ستانجى يخرج من اليمين] .

المشهد السادس عشر

[سابين – مارى چان داخلة من الصدر] .

مارى چان : أأنت وحدك يا أمى ؟

سابين : نعم .

مارى چان : ها نحن وحدنا . . أتشعرين بألم !

سابين : أحسست تعباً منذ لحظة . لا تقلقى ، قبليني فقط ! ضميني إليك بقوة ! قولى لى إنك تحبيننى كثيراً .

مارى چان : إننى أعبدك .

سابين : ابنتى العزيزة . . انظرى ، ألا ترين أننى قد استعدت قواى تماماً ؟

مارى چان : أحقاً ؟ هل استعدت قواك تماماً ؟

سابين : نعم .

مارى چان : هل أستطيع التحدث معك دون أن أخشى إرهاقك ؟

سابين : ألديك ما تقصينه علىّ ؟

مارى چان : قولى لى أولا إنك أنت أيضاً تحبيننى كثيراً ؟ .

سابين : آه يا حبيبتى ! لن تعرفى أبداً مقدار حبى لك !

مارى چان : على العكس ، سأعرف ذلك حالا . . ضمينى إليك بدورك ضمة قوية . . دعينى أحس بقلبك قريباً من قلبى . قربى أذنك من فى . . أمى العزيزة ، إننى أحب ديديه ماراڤون .

سابين : هيه ؟ ماذا ؟ ما هذا الكلام ؟

مارى چان : أنا وديديه نحب بعضنا بعضا .

سابين : تتبادلان الحب ؟ أمعنى ذلك أنكما صديقان مخلصان ؟

مارى چان : لا تتظاهرى بعدم الفهم . . إن ديديه يريد الزواج منى .

سابين : آه ! أهذا ما كنت تريدين أن تخبرينى به ؟ حسناً ، إن هـذا الشاب حسن الذوق . إذ يفكر فيك من أجل المستقبل ، لكن إعلان الأمر على هذا

النحو لفتاة . . قلة ذوق .

مارى چان : آه ! أماه ! لا تمزحى !

سابين : أقسم لك إنى لا أشـــعر برغبة فى المزاح .

مارى چان : لقد عاهدت ديديه على أن أحصل على موافقتك .

سابين : حقاً !

مارى چان : وفى استطاعتك ، وفقاً لما تقررين ، أن تجعلينى سعيدة حقاً أو تعيسة للغاية !

سابين : إنك يا بنيتى لتعبرين عن نفسك فى عنف شديد بحيث أجد من واجبى أن أردك إلى اللهجة اللائقة منذ الليلة ، بدلا من أن أرســـلك إلى فراشك ، وما أجدرنى أن أفعل ذلك . . اعلمى إذن أنه ليس لدى من اعتراض على ديديه ماراڤون سوى أنه سبب لك اضطراباً ذهنياً قبل الأوان ، والحق أنك لينة العود يا بنيتى ، وتجهلين

– تقريباً – ما يدور فى الدنيا . .
ولست أجدك ناضجة بعد للزواج . .
وكل ما يمكن أن أجيبك به هو أنه
يمكنكما أن تستمرا فى التلاقى . . .
وهكذا لن تتعذبا . وسيساعدكما ذلك
على تبين مدى تعلق كل منكما بالآخر .
وفيما بعد ، أى بعـــد زمن طويل
نوعا ما . . سنرى !

مارى چان : ليس هـــذا هو الرد الذى وعدت به ديديه . لقد خرج وهو يأمل أن يكون خطيبى منذ الغد . . ثم زوجى بعد فترة قليلة ! معذرة إذا أنا ألححت عليك بكل ما أوتيت من قوة .

سابين : اذهبى إلى فراشك . فأنا فى حاجة إلى الراحة !

مارى چان : كيف أنام بينما تساورنى فكرة أن ثمة خيبة رجاء على هذا النحو من القسوة والعنف تنتظر ديديه ؟ أوه ! ساعدينى

على ألا أسبب له كل هذا الأسى ! لن.
أجد فى نفسى الشجاعة لذلك ! إنه يحبنى
حباً زائداً !

سابين : إنك أنت المسحورة بحبه ، أيتها الصغيرة
التعسة !

مارى جان : لماذا قسا صوتك وخشن ؟ ليس شراً أن
نتبادل الحب ؟

سابين : دعينى . . قلت لك [مادية مدام فونتنيه]
آه ! أماه ! ماذا تصنعين هناك ؟ تعالى ..
لتؤنبى صغيرة تريد أن تنشر غداً إعلان.
زواجها من ديدييه ماراڤون !

المشهد السابع عشر

سابين . . مارى جان . . مدام فونتنيه

مدام فونتنيه : [مقبلة من الصدر] ياله من خبر ! مارى.
جان . . أرأيتم هذا ! [إلى سابين] إنه
فتى لطيف !

سابين : أعيدى حفيدتك إلى الصواب ، قولى لها إن دراستها لم تنته بعد ؛ قولى لها إن الفتاة لا تندس وسط المجتمع وتتخذ مظاهر سيدة . بينما يقف ما تعرفه من تاريخ فرنسا حتى نهاية هذا العام . عند سنة ١٦١٠ .

مارى چان : [إلى مدام فونتنيه] أطلب إليك أن تخبرينا أى سن تزوجت أمى ؟

مدام فونتنيه : إيه ! إيه ! يا عزيزتى ! كانت فى مثل سنك تقريباً . .

مارى چان : أتسمعين يا أمى ؟ !

سابين : لقد أخطأت ، فإن المصير التعس الذى آل إليه زواجى المبكر ، أكد صحة كل ما ألقى علىَّ حينئذ من نصائح للتريث فى الأمر .

مدام فونتنيه : دون جدوى . . [إلى مارى چان] ولكن يجب على مع ذلك يا حبيبتى أن ألفتك إلى بعض النواحى الجدية التى لم تفكرى فيها

دون ريب : إن مركز ديديه الاجتماعى لم يستقر بعد ، ومن الحكمة أن تنتظرى حتى يسير فى طريق الثراء .

مارى جان : تريدين أن أتركه الآن يكافح وحده ، وأن أمتنع محاذرة عن مشاركته مصاعب بداية الحياة . . فإذا ما أصاب نجاحاً جئت إليه وقلت له : « الآن . . هأنذا ! » أوه ! كلا . لا تحرضينى على ذلك ، ولسوف تحمانى هذه الفعلة الضيق ، بل الخجل ، طيلة حياتى !

مدام فونتنيه : [إلى سابين] ما ألطف ما تقول !

سابين : لقد سرت إلى الكوارث بالتفكير على هذه الصورة !

مدام فونتنيه : يجب أن تعالج موضوع ابنتك بطريقة أفضل من تلك التى عالجنا بها موضوعك .. عندما يحين وقت تحرير العقد مع الزوج الموعود ، أيا كان هذا الزوج ؛ سأطلب بأن توضع

كل موارد مارى چان الحالية والمستقبلة
تحت نظام البائنة .. [إلى مارى چان] ومعنى
هذا أنكما لن تستطيعا لا أنت ولا زوجك،
أن تمسا رأس المال . فهل تعلمين مقدماً
إذا ما كان مثل هـــذا الشرط الصارم
لا يفسد مشروع حبيبك ؟

مارى چان : سيوقع على كل شيء وهو مغمض العينين ، ولقد أفصح لى ، من تلقاء نفسه ، عن رغبته فى ألا يدور الحديث حول المال فى موضوع حبنا . . جدّتى ، كثيراً ما تتحدثين مع ديديه ، وإنك لتعرفين جيداً سمو أخلاقه ، وكرم طبعه! كونى شفيعة لنا ، وسنداً لحبنا !

مدام فونتنيه : حقاً يا سابين ! إن ما كنت أقيمه من اعتراضات لحماية مصلحة ابنتنا ، ليبدو لى الآن وقد زال تماماً . .

مارى چان : أمى العزيزة ! أنت يا من لم تسبى لى ألماً

قط ، اصنعى كل ما تقدرين عليه من خير من أجلى ! فاض قلبى حزناً حتى أوشكت أن أختنق ! انظرى إلى انفعالى ! انظرى إلى دموعى ! .

سابين : أتظنين أننى لا أشعر برغبة فى البكاء ؟ فكرى يا مارى چان : . فى أننى كنت أعدك فى خاطرى منذ لحظة كأنك ما زلت ابنتى الطفلة ، التى تفيض روحها بحبى لك ، وبحبك لى . ثم إذا بك فجأة ، تأمرينى أن ألعب دورى الأخير فى موضوع سعادتك ! ولم أعد أملك إلا أن أمتنع عنه ، أو أن أكله منذ الآن إلى شخص غريب . إنك لتطعنيننى بهذا الاعتراف . فكل قبلاتى ، وحبى لك ، والعش الهنىء الذى أودعتك فيه ، كل هذا لم يعد يكفيك ؛ ولا شىء هنا . ولا شىء منى يستطيع أن يقفك . . آه !

إننى لم أكن أتوقع هذا الجرح . . . بهذه السرعة ! .

مارى چان : ولكنى لا أزال أحبك نفس الحب ! ولا أستحق مثل هذا اللوم القاسى ! وإنى لألجأ ، يا أمى العزيزة ، إلى ذكرياتك نفسها ، عندما كنت فى الماضى تنتظرين الزواج من أبى فى صبر نافد . . . فهل جعلك هذا تكفين عن إعزازك وحبك لمن ربوك ؟ ألم تظلى — على الرغم من هذا — الأمة المحبة لأمها ؟

سابين : نعم : إنك لتجعلينى فى هـــذه الساعة أعيش مرة أخرى ، مشاعر الفتاة التى كنتها فى الماضى . إننى أفهم تلك الفتاة الآن بواسطة فتاتى . . هذا حق !

مارى چان : أرجوك يا أماه !لا تخيبى رجائى ! سيكون لك ابن جديد يعبدك ، ويباركك ! آه ! اسمحى بأن يكون ديديه ابنك عما قريب

قولى إنك توافقين ، أرجوك ، أتوسل إليك !

سابين : [وقد نفدت مقاومتها] لقد أنهكت أعصابى . . ولم يعد قلبى يريد أن يحتفظ بك على الرغم منك . .

مارى چان : هل كففت عن الرفض ؟ أهذا صحيح ؟ أهذا صحيح حقاً ؟ [تشير سابين بالموافقة] أوه ! أمى العزيزة ! أية فرصة تمنحينها ! لست أدرى كيف أعبر لك عن ذلك ! لن أستطيع أن أوسعك ما يكفى من قبلات !

سابين : لا تفرطى فى شكرى . . ليس إلى هذا الحد ! كونى فرحة لكن فى هدوء . . فى هدوء . . !

مدام فونتنيه : هيا سابين طيبى نفساً ! تذكرى أنك لن تكونى وحدك عندما تفارقك ابنتك ، تذكرى أن أمك معك !

سابين : أجل !

مارى چان : [إلى مدام دوبنيه] أوه ! أليس كذلك ! ستكونين هنا يا جدتى ، وستكونين دائماً طيبة معها كل الطيبة .

سابين : أنت متزوجة يا صغيرتى ! مارى چان متزوجة ! أوه إن هذا ليبدو لى مضحكاً للغاية ! .

[تجهش بالبكاء]

الفصل الثانى

[مكتب مؤثث كمعرفة استقبال يقع فى الطابق الأرضى . . فى الصدر باب يطل على حديقة . . وإلى اليسار باب يطل على ممر ، وإلى اليمين باب يوصل إلى الشقة]

المشهد الأول

مارى جان — ليونى

[عند رفع الستار ترى مارى جان مقبلة من ناحية الشقة مع ليونى . . وقد انتهت من فرجتها] .

مارى جان : وهنا كما ترين ، مكتب ديديه . وهو يطل على الحديقة .. والخضرة تخفى عنك

الحظيرة وغرفة العربات . . نحن لا نملك سوى جوادين . وهما شيء قليل بالنسبة لجولات زوجي وجولاتي وزياراتي . . لكن يجب على المرء أن يكون متعقلا في البداية

ليوني : أفهم أن هذه الرفاهية والراحة تجعل الإنسان يرضى بسكنى بولوني — سير — سين ؟ .

مارى جان : كان هاما ألا يضطر ديديه إلى القيام برحلة طويلة كل صباح ومساء [وهي تشير إلى باب اليسار] وهذا الباب سبيلنا إلى الشارع . ومنه إلى مصنعه تستغرق المسافة خمس دقائق ..

ليوني : وماذا قالت والدتك إذ تركت الحي الذي هيأت لك الاستقرار فيه ، وجئت إلى هنا لتسكني بعيدا عنها على هذا النحو ؟

مارى جان : ياللأم الطيبة المسكينة : لقد استكبرت

الأمر حتى اتهمتنى بالعقوق بل لقد
رمتنى بمآخذ لا أستطيع أن أحصيها . .
ومنها أفعال تمت على غير علم منى . .
ومن ذلك أنها رفضت منذ أربع سنوات :
أن تتزوج ثانية من فرط حبها لى .

ليونى : من السيد ستانجى ؟

مارى جان : وكيف عرفت ذلك ؟

ليونى : فى الوقت الذى كنا فيه أنا وأنت
لا نزال فتاتين . قدر لى أن أسترق بضع
كلمات تتعلق بهذا السيد . من أحاديث
كانت تدور بين أبى وأمى . .

مارى جان : أى كلمات ؟ !

ليونى : أرجو ألا يغضبك ذلك . . كان أبى
يقول : « لست فضوليا . . لكننى أود
حقاً أن أعرف إلى أى مدى بلغت الأمور
بين مدام رائيل والسيد ستانجى ؟ » . .
وكان ذلك يثير أمى إلى أقصى حد .

فكانت تصيح : « إنكم أنتم الذين دأبتم على أن تظنوا السوء عندما ترون رجلا يتعرف تعرفا مهذبا على سيدة ما ! . . إن السوء لا يوجد إلا فى أذهان أرواج على طرازك ! » .. لكن أرانى أثرثر . . وكان واجبا علىّ أن أكـــود قـــد انصرفت .. وداعا ! أطفالى فى انتظارى .

مارى چان : [وهى توصلها] ما أسعد حظك . لأن لديك أطفالا ! . .

ليونى : ثلاثة أطفال فى ثلاثة أعوام ! إننى لا أسمى هذا حظا . .

مارى چان : أما أنا فقد بدأت أشعر باليأس .

ليونى : صـدق خبرتى ! إنهم يأتونك حين لا تتوقعين .

[تخرج ليونى]

المشهد الثانى

مارى چان — ديديه

[يدخل ديديه مهموما من باب اليمين]

ديديه : ألم يأت أبى ؟

مارى چان : كلا ! كنت أجهل أننا سنراه اليوم . . مظهرك ينبئ بأن صحتك سيئة ! لِمَ يبدو على محياك كل هـــذا التعب ؟ من أين أقبلت ؟

ديديه : كان لدى عمـــل مع بعض أصحاب المصارف . . لقد اضطررت إلى الذهاب إلى كل أنحاء باريس .

مارى چان : لماذا إذن تعبنا فى الانتقال إلى هنا لنكون على مقربة من عملك ، إذا كنت ستَرجع ثانية فتقضى أوقاتك فى الطرقات ؟ فمنذ خمسة عشر يوما وأنت تذهب يوميا إلى باريس ، بل تذهب إليها مرتين فى بعض الأحيان .

ديديه : ليس ذلك لمتعتى . . .

مارى چاد : لعل ذلك من فرط تحمسك لعملك ؟ نعم . إنى أضايقك . أعرف ذلك ، عندما أنصحك بشيء من الاعتدال . . لم تجهد نفسك على هذا النحو ؟ ألم تقل لى فى العام الماضى إننا أصبحنا أغنياء تقريبا . .

ديديه . عندما يكون الإنسان فى دنيا الأعمال فإنه لا يعرف ما سيملك فى غده .

مارى چان : آه ! إننى أشعر بالاطمئنان التام مع رجل مثلك ، ولا أخشى غير أمر واحد . وهو أن تنهك قواك وتمرض . . ما أشد حبى لك ! . . تصور أننى منذ لحظة كنت أحسد ليونى لأنها أصبحت أما . . ومع ذلك كلما تجردت من أحد رغباتى فى أن يكون لى طفل منك ، فإننى أرتعد خوفا . . من أن أتعرض ، إذا

ما رزقته ، إلى أن أحبه أكثر مما أحبك ،
فأنا أشعر عندما أعانقك هكذا أن ثمة
أمومة راضية تزدهر فى أعماق نفسى ،
إذ أشعر أنك زوجى وولدى فى
وقت معا .

ديديه : ماری چان ! هكذا ستحبينى دائماً . .
أليس كذلك ؟ حتى لو بدد المستقبل
أحلامك الواهمة عن قدرى وكفايتى ! .
آه ! كم أود أن أحقق كل رغائبك .
وأن أجعلك أسعد النساء !

ماری چان : لا يدانى ســـعادتى شىء إذا لم تأتنى
بوجه عابس متعب . . يا لله ! إننى
أقل جداً منك ، هذا واضح وأنا
أرسم مشاريع أكثر تفاهة . . إن أول
ما أرغب فيه هو أن تصون شبابك
حتى تحين الساعة التى نبدأ فيها هـــذه
الرحلات الممتعة التى وعدتنى بها .
أتذكر ذلك ؟ فى يخت ؟ آه ! أن

أتجول حول العالم إلى جانبك تحت
سماوات جديدة . هذا هو حلمى ،
فلا تحرمنى إياه !

ديديه : نعم . حلم ! . . إنه أسعد وقت يمكننا
أن نأخذه من الحياة .

مارى چان : لا بد لكى نحسن صنعاً ، أن تنسحب
من أعمالك بعد اثنى عشر عاماً أو قبل
خمسة عشر بعد أن تكون قد كونت
ثروة ما . . وبعد أن تكون قد نلت
وساماً . .

ديديه : آه ! وهذه سخافة أخرى ، بعيد أن
أفكر فيها .

مارى چان : ولكن لها أثرها على الغالبية العظمى من
الناس . . فليس ثمة عين لا يثيرها
مرآه . وعندما يمر فى الشارع حملة
الشريط الأحمر ، لا أتمالك نفسى أبداً
من أن أتأكد بطرف عينى ، ما إذا
كانوا يحملون الوسام الحقيقى أم لا . .

وعنـــدما يتحادث رجلان فى غرفة استقبال ، ألاحظ دائماً أن حامل الوسام يثبت نظرته فى عينى الرجل الآخر بينما العاطل منه ، يثبت ناظريه على مستوى العروة التى يثبت فيها الوسام . ثم . . وعندما نذهب إلى المسرح أو الغابة ، وإلى الشاطئ أو مدن المياه المعدنية ، سأجد متعة كبيرة فى أن أتصور أننا سنجعل أهل الفضول يقولون : « لا بأس بهذه السيدة الشابة التى نراها دائماً فى صحبة زوجها الذى يحمل وساماً ! آه ! أن أظهر معك ! أن أكون دائماً بصحبتك ! ذلك هدف حياتى ولحظاتى جميعاً ! أترى ! لست أشك فى أننى أؤخرك هنا . . واستنفد صـــبرك . . ومع ذلك لا أستطيع الانصراف . . اطردنى . .

ديدييه : نعم . . فلدى أعمال كثيرة جداً . .

ستتحدث فى ذلك مرة أخرى . .

فيما بعد . .

ماري جان : إلى اللقاء . .

[تخرج] . .

المشهد الثالث

[ديديه ماراڤون داخلان من الصدر]

ديديه : أبى !

ماراڤود : لقد أخرت مهمتك على خير وجه !

ديديه : وهل بينت لحماتى أننى لا ذنب لى حقاً ؟ .

ماراڤون : لقد ذهبت إلى هناك لأشهد معك . وأتكلم فى صـــالحك . فلم يكن فى مقدورك أن تفعل ذلك بنفسك : لقد شرحت كل شىء . . المنافسات التى تكاثرت حولك . . وسوء نية ممول يتهرب . . وما يجب أن تتعرض معه لمخاطر قضية ، مخاطر مشكوك فيها

ولا نهاية لها . . وتحدثت عن إفلاس أكبر عملائك . . ذلك الإفلاس الذى لم يكن ممكناً توقعه . . والذى سيحرمك بعد بضعة أيام من دخل كبير . لقد رويت كل محاولاتنا غير المجدية مع رجال المال : البعض منهم يؤثر أن يتركك تهوى لينهبوك فيما بعد كما يشاءون . والآخرون يطلبون ضمانا من أسرتك . ولم أكن فى حاجة إلى أن أقول إننى لست بالرجل الذى يستطيع أن يقدم مثل هذا الضمان . . إذ أنه فيما عدا معاشى فإن المال القليل الذى كنت أملكه سيهوى معك .

ديديه : وهل حضرت الجدة هذا الحديث ؟

ماراڤون : نعم !

ديديه : وماذا قالت ؟

ماراڤون : عندما ألحت إلى المبلغ المطلوب . . عندما نطقت برقم ثلاثمائة ألف فرنك ،

لم تصنع مدام فونتنيه من شيء سوى أن ازدادت شحوباً . فأنت تعلم أن قلبها ليس على ما يرام . . لقد كلفتنى بأن أعرض الأزمة التى وقعت فيها ، لا أن أطلب عوناً . . ومع ذلك فسوف تتأكد قريباً من نوايا الأم وابنتها . . فهما آتيتان لمقابلتك .

ديديه : اليوم ؟ . . هنا ! وماري جان التى لا يساورها أدنى شك حتى الآن ؟

ماراڤون : كيف ذلك ؟ لقد أكدت لماتين السيدتين أنك ستخبر زوجتك وأنا فى طريقى للقائهما.

ديديه : لقد خانتنى شجاعتى منذ لحظة ، فأخرت لحظة اعترافى أمام ثرثرة هذه البريئة العزيزة ، وأمام أحلامها الواهمة . وعلى كل حال ، يمكن تلافى الكارثة دون أن أعذب ماري جان .

ماراڤون : لا تستطيع قط أن تخفى عن زوجتك

أنك تطلب سلفة تبلغ هذا القدر ،
على ثروة مستقبلة هى ثروتها .

ديديه : هذا صحيح إننى أنسى أبسط قواعد السلوك !

ماراڤون : ومع ذلك فليس ثمة ما يمنع من أن أكون أنا أيضاً ، حامل الأخبار السيئة إلى مارى چان .

ديديه : لقد ذكرتنى أن علىّ حيالها واجب حب و عطف لا يجوز أن أتهرب منه .

ماراڤون : أنتما الاثنين . . أنت بحالتك السيئة التى تعانيها ، وهى باندفاعاتها العاطفية ، سيثير كل منكما الآخر ، وسط تنافس مشاعركما كزوجين ، وسيسىء كل منكما إلى صاحبه إساءة أشد مما قد يسببه كلامى الأبوى المتزن .

ديديه : حسناً ! أوافق . . وأعهد إليك بهذا !

ماراڤون : هل أجدها فى غرفتها ؟

ديديه : كانت فى حجرة الاستقبال . صوت مارى جان يرن فى الكواليس] أتسمعها ! . . إنها تغنى ! [يخرج مارافون من باب الشقة]

المشهد الرابع

[ديديه . . سابين مقبلة من الصدر]

ديديه : آه ! أهذه أنت ؟

سابين : هل أنت وحدك ؟

ديديه : زوجتى الآن مع أبى .

سابين : أفضل ذلك ، فسوف أفقد عقلى بين ذراعيها ، والقليل الذى بقى لى منه يلزمنى لأتدبر ما يجب عمله . . فزيارة مارافون لنا منذ قليل ، وبياناته المفاجئة أذهلتنى بحيث فاتنى أن أسأله أهم الأسئلة !

ديديه : لقد أخبرنى أبى أن مدام فونتنيه ستصحبك فى هذه الزيارة .

سابين : أبى ليست ببعيدة . ومفاجأة قاسية كهذه

قد شدت ساقيها وخاصة فى سنها وفى صحتها المتهاوية . ولم ترد هى عند خروجنا من الحظة أن تقف أمام لفتى فى أن أبلغ بيتك سريعا . فتركتنى أسبقها . إننى لم أحضر إلى هنا لأوم . . وإنما جئت لأستوفى معلوماتى . إننى لأسلم بأنك لم تكن متهورا أو أخرق . . وأن الحظ وحده هو الذى خانك . ولننتقل الآن إلى ما يمكن أن يحدث . . ولتطلعنى على الحالة التى أنت عليها الآن .

ديدييه : لقد بلغت اللحظة التى يمكن فيها إنقاذ مركزى تماما . . أو إضاعته بالمرة : وأنا أعرض أن يراجع حساباتى ودفاترى ومراسلاتى ، أى خبير تريدون ، وبذلك تثقون بأننى لا أطلب هبة . وإنما أطلب مشاركة مالية مصيرها إلى الازدهار فى نفس الحين الذى تعيد فيه إلى الثراء . وتقى بأن عنادى فى ألا يفلت الزمام من

يدى ليس من أجلى أنا . فمنذ بدأ صراعى مع القدر . رأيت الكثير من دناءات رجال المال وقساوتهم ، وباوت الكثير من القلق والقنوط . . بحيث لو كنت وحدى لكنت قمينا بأن أنزل — عن طيب خاطر — عن مطامحى ، وعن الكفاح ، وعن كل شىء . لكن هناك مارى چان ، وما ألفت من سعادات جديرة بفتاة مدللة ، وما تتمتع به من ترف بريء ، كزوجة صغيرة السن ، فإذا كنت لا أستسلم للسقوط ، فما ذلك إلا لأننى أريد ألا أحملها مغبة الحرمان والمذلة والحزن .

سابين : ياصديقى . . إن كلا منا يفكر فى مارى چان قبل أن يفكر فى نفسه ، وكلانا يحبها حبا شديدا حتى إننا كثيرا ما يبغض أحدنا الآخر من أجل ذلك .

ديديه : أؤكد لك أننى لم أحمل لك قط مشاعر كهذه .

سابين : لكن ! وأنا لا أتهم إلا نفسى إذ شعرت بعداوة المنافسة وبالحقد الغيور ، لمّا بدا لى أنك كنت تغتصب نصيبى فى حب ابنتى . لكن اليوم ، لم يعد الموضوع مجرد قلق يجب تلطيفه ، ولا مسألة احتكار حب ، لذلك ، فى هذه الساعة التى يجب علينا فيها أن ندرأ الخطر ، أريدك أن تنظر إلى نظرتك إلى حليفة مخلصة حتى الإخلاص وأحره .

ديديه : مساعدتك ضرورية لى لكى أحصل من مدام فونتنيه على مبلغ الثلاثمائة ألف فرنك التى أحتاج إليها ، والتى أباها علىّ الجميع . فإذا ما أوصد نهائيا هذا الباب الأخير فى وجهى ، فإننى سأرى العمل الذى بذلت فى تشييده جهودا متواصلة لمدة أربعة أعوام ، سأراه ينهار كلية ، وسيعلن إفلاسى . .

سابين : أوه ! . .

ديديه : وسيحجز على المحضرون . .

سابين : آه! يالشقاء !. . الإفلاس . . الحجز . . هذه هى الكلمات نفسها التى كانت تطرق أذنى فيما مضى . كأنما هى لوالب محرقة ، لقد قضى على إذن بعذاب سماعها اليوم مرة أخرى . . فى بيت ابنتى ! . . لكن نصيبها هى . . لقد أكد لنا ماراقون أنه لم يكن معرضاً للخطر . .

ديديه : طبعا ! إن بائنة زوجتى لم تمس ولم تتحرك . . وهى لاتزال مودعة ببنك فرنسا ، تحتفظ بقيمتها . .

سابين : وعلى ذلك . فمهما يحدث . فإن انهيار بيتك لا يمكن أن يكون انهيارا تاما ! . .

ديديه : سيكون فى نظرى أسوأ مما لو كان انهياراً تاماً . كيف سأودى بهذا وذاك إلى الفاقة ، أما أنا فعقد زواجى يجعلنى رجلا ذا دخل يعيش عليه ! سأكون سبب خراب بعض الناس . . ولن أخرب أنا ! آه ! إنك

تخطئين فى سرعتك إنى إذا تصورت أننى
أقبل الاستسلام بدناءة إلى حالة العجز
عن تسديد الديون . بل أكثر من ذلك !
الاستسلام إلى أن أصبح رجلا خبيثاً فى
نظر أناس وثقوا بكلامى وبشرف توقيعى .
لا ! سأحس بالحزى من وجودى .
بالحزى لأننى لا زلت حياً .

سابين : وما هو قرارك إذن ؟ إنك لا تجيب ؟
إنك تخيفنى ! هذا أمر سيئ !

ديديه : معذرة يا أماه ! لقد اندفعت إلى أبعد مما
كان يجب أن أقول !

سابين : كلا يا ديديه . إننى أنا التى دفعتك عند
وصولى . إلى أن تحدد موقفك ، وقد
تكشف لى الآن بكل بشاعته ، وأعرف
أن الأمر لم يعد أمر تصحيح وضع أعمالك
والمحافظة على إمكانياتك فى الإنفاق . لقد
عرفت أن الأمر أمر إنقاذ كيان بيتك
نفسه . وعلى ذلك فمن الواجب أن نبذل

الجهد الذى طلبت مهما كان عظيما .
وسأقوم بذلك فى عزم كبير .

ديديه : شكراً على كلماتك الطيبة ! لقد كنت فى حاجة إليها . . والآن هل تعلمين شيئاً عن نوايا مدام فونتنيه ؟

سابين : لم تصرح لى بعد برأيها . فلم نتبادل حتى الآن إلا الخواطر والتنهدات والشكايات .

ديديه : أرجوك عندما تحضر ، ألا تؤخر الساعة التى نعرف فيها نياتها .

سابين : إننى أوثر ألا تشعر أمى أننا أنا وأنت اثنان يسند أحدنا الآخر طمعاً فى مالها . إننى لا أضع طيبتها موضع الشك ولكننى أحتاط لما قد ينطوى عليه طبعها من وساوس ، لذلك أطلب إليك أن تدعنى أطرق الموضوع معها على انفراد .

ديديه : حسناً ! سأذهب ، فوجودى ضرورى فى المصنع على كل حال . . . إننى أدع بين يديك مصيرى ، وهناوة مارى جان .

[يخرج من باب اليمين]

المشهد الخامس

سابين . . مدام فونتنيه

[مدام فونتنيه داخلة من الصدر]

سابين : تعالى يا أماه ، تعالى . . اجلسى هنا

مدام فونتنيه : أليست ابنتك وزوجها هنا ؟

سابين : حفيدتك وزوجها يتركان لى مهمة استعطاف كرمك .

مدام فونتنيه : أظن أنهما لا ينتظران منى أن أدفع ثلاثمائة ألف فرنك .

سابين : إنهما لا يطلبان منك سوى قرض . فرأس المال لن يضيع بل سيستثمر . .

مدام فونتنيه : سيستثمر فى أيد ماهرة . . . إذا حكمت وفقاً للحالة التى وصلت إليها أعمال ديديه . .

سابين : كلفى أشخاصاً مختصين تثقين بهم بدراسة

حالة أعماله . إننا لا نرجو منك أن تدفعى أى مبلغ إلا عن علم بالأمر .

مدام فونتنيه : كلا ! . . لن أسلك هذا السبيل ، ولن أنقاد وراء واحد من هذه الاختبارات التى تنتهى بسراب يخدع الإنسان : فعلى هـذا النحو كلفنا زوجك فيما مضى خمسمائة ألف فرنك تقريباً . لقد كانت ثروتنا مليوناً وربع مليون من الفرنكات .. عندما اعتزل العمل السيد فونتنيه بعد جهود دامت خمسة وثلاثين عاماً . . . فما الذى تبقى لى بعد أن وهبت مارى جان بائنة قدرها مائة وخمسون ألف فرنك . . بقى لنا حوالى ستمائة ألف فرنك . إنها ثروة لا بأس بها ، وليست بالكثيرة ، إنها تكفى فقط لأجعلكم تعيشون جميعاً عيشة كريمة .

سابين : تتكلمين عن عيشة كريمة ! هذه هى

المشكلة بالذات . يلزمنى أن أقول لك إنه حتى ولو عرضت نصف ثروتك الحالية من أجل أحفادك ، فإن هذه مخاطرة لا يجدر بك أن تتخلص منها . فالمسألة هى أن نجنب الاسم الذى تحمله مارى جان فضيحة تصفية قضائية ، تفهمين ؟ أليس كذلك ؟ أنا على يقين من أنك لم تقدرى هذا الاحتمال عندما قابلتنى برفض حاسم على هذا النحو . أنا نفسى لم أفكر فى هذا الأمر قبل أن يفتح ديديه عينى عليه ، فنحن النساء نعوزنا الغريزة الخاطفة التى يتمتع بها الرجال فى إدراك كنه الشرف .

مدام فونتنيه : نعم ، أعرف ذلك . هؤلاء السادة يقولون لنا فى مثل هذه المناسبة : « شرفى ! إنكن معشر النساء تفتقرن إلى حساسية جنسنا . لكى نصون شرفنا الذى خاطرنا به ، عليكن أن تعطونا مالكم يا نساء : . »

سابين : كنت خليقة أن تخففى من قسوة كلامك لو أنك رأيت بأى استنكار كريم ، استبعد ديديه فكرة عدم الوفاء بتعهداته ، لو أنك رأيت ذلك لخففت من قسوة كلامك . . لقد أفهمنى أنه سينتحر .

مدام فونتنيه : إننى أعرف أيضاً هذه القصة : فقد كان زوجك فيما مضى — وقد أخفينا عليك الأمر — كان يأتى للقاء زوجى فى اليوم السابق لاستحقاقات دفع ديونه ، ويهدده بالانتحار . وكان أبوك يعطى . . ويعطى ثانية . . . ثم بلغ ما دفعه نصف مليون بالتمام . . وعاد زوجك فذكر الانتحار ، قال أبوك فى نفسه : « حسناً ، حسناً . . إن التعس لم يقتل نفسه قط ! » .

سابين : أماه ! لقد مات !

مدام فونتنيه : نعم ، ذات يوم بسبب التهاب فى الرئة . .

سابين : أود فى الحقيقة أن أقنع نفسى أن ديديه

لن يرتكب هذه الفعلة الشنيعة ، وهى أن يرمل ابنتى . ولكن هناك على الأقل حوادث أخرى محزنة على وشك الوقوع .. فمنذ لحظة لوح لى بتوقع الحجز . . وتخيلت أيديا وحشية تنقذ هنا وتهبط بلا شفقة على هذا الأثاث الذى تتعلق به روح مارى جان بسبب ألفتها له كل يوم ، وبسبب حبها لكل ما أهدى إليها ، والزهو الراضى الذى يبعثه فى النفس ما اختارته من أشياء . لقد رأيت هذه الأشياء العزيزة تحمل إلى الشارع وتوزع بالمزاد .

مدام فونتنيه : إن عقلك ليركض . . فإذا ما بلغت شدة الأحداث هذا الحد فحسبى أن أشترى من جديد كل ما يؤثث ويزين هذا البيت . يمكننى أن أعيد تأثيث بيت ابنتك وأن أسكنها حيثما تشاء ، لدى فى بيتى أو فى

أى مكان آخر . وسأقوم انا بكل نفقات بيتها .

سابين : أتعدين بأن تقدمى إليها إحساناً . . ليس كافياً أن تفعل جدة ذلك ، لتمنع كوارث يمكن أن تصيب ابنتنا بالخسران واليأس والمميت . .

مدام فونتنيه : هل أنا فى حاجة أن أدافع عن نفسى ضد لومك ؟ ما الذى تتطلبه حاجاتى الخاصة ؟ ثوب أسود . . . وحجرة

صغيرة ! وفيم أنفق إذن إيرادى الذى يبلغ عشرين ألف فرنك على وجه التقريب ؟ أنفقه فى إسكانك سكناً لائقاً . وفى أن أتيح لك شيئاً من الأناقة . وفى أن أهيئ لك فى منزلك حياة اجتماعية . وفى أن أتيح لك كذلك ، قضاء شهر فى الريف إبان الصيف ، وفى استمتاعك بالمسرح فى الشتاء ، وفى دفع ما يلزم للطبيب الخاص كلما خيل إلى أن تياراً من هواء أصابك بسوء . والرصيد الذى تخلفه لى مواردى آخر كل عام ، أنفقه سعيدة على هدايا لك ولمارى جان . إن ما أدافع عنه هو ما يضىء حياتك بابتسامة بين الحين والحين ، حياتك التى لم تنل نصيبها من المتعة ، والتى لا أريد أن أدعها تزداد ضيقاً أو قتاماً ، ألا تشعرين إذن أن ما أصونه وأحافظ عليه ، إنما هو استقلالك فى الغد . . . وميراثك فى

المستقبل ؟

سابين : إننى أجعل المكان الأول لابنتى ، فلا تهتمى بى .

مدام فونتنيه : إننى أدافع ، وسط العاصفة ، عن الطوف الذى كنت أول من استقررت عليه بعد غرق زوجك . . والذى يمكن لمارى چان بدورها أن تصعد عليه ، وأن تنتشل زوجها من الماء فى آن واحد . وأخيراً هكذا ! لقد أجبت بما فيه الكفاية .

سابين : لا تكلفينى بأن أحمل حكماً نهائياً إلى الشخصين التاعسين اللذين تقبضين على زمام آمالها ؛ قولى لى بالأحرى إنك ستفكرين بضع ساعات ، بل بضعة أيام .

مدام فونتنيه : هذا خداع للناس . . . لقد فكرت فى الأمر ملياً .

سابين : قولى على الأقل إنك ستدفعين جانباً مما يطلب منك ! عدى بدفع مائتى ألف !

وفى ذلك ما يسهل عليه من غير شك الحصول على الباقى . أماه ! أتوسل إليك . . حتى إذا كنت لا تدفعين سوى مائة ألف فرنك . . عدى بالدفع !

مدام فونتنيه : لن ألقى بقطعة من مالنا إلى هذا المصنع النهم الذى تعلمت الآن أن أتهيب أذرعته المائتين أو الثلاثمائة ، ونفسه الصاخب باللهب والدخان . لن أغذى هذا الوحش الذى لا يشبع من جوع ، والذى قد يأكلنا جميعاً .

سابين : آه ! لو كان أبى حياً لأبدى رحمة أكثر . ففى ظروف مماثلة كان أول ما فعله هو الإغاثة . لقد ذكرت ذلك بنفسك . . إذ تأثر ودفع .

مدام فونتنيه : لقد كان هم أبيك الأخير ألا يراق مال ابنته وحفيدته من بعده . فأنا لا أزال أراه عندما كان على فراش الموت وقد

أمسك بيدى ، يقول لى : « سابين أرملة . . وهى شابة صغيرة ! ولا ريب أنها ستتزوج ، وستتزوج حفيدتنا . وأريد قبل رحيلى أن أطوى فى عائلتنا هذه الصفحة ، صفحة ما يبدده أزواج البنات . . اقسمى لى على أنك لن تتيحى لأحد أن يؤثر فيك . . اقسمى لى أنك لن تقدمى توقيعك ولن تقرضى شيئاً من الثروة التى تبقت بعد ما بذلته من جهود فيها » . يا ابنتى ! ليس لدى ما هو أعز على من ذكرى زوجى . وقد أقسمت له على ما يريد ، وليس لدى ما أشرحه لك بعد ذلك .

[تريد أن تنصرف]

سابين : استمعى إلى مرة أخرى .

مدام فونتنيه : كلا ، لقد قفلت المناقشة .

سابين : أرجوك ، أصغى إلى .

مدام فونتنيه : هيا ، أفسحى الطريق .

سابين : لن تنسحبي هكذا بعد كلمة مجردة من الشفقة . .

مدام فونتنيه : لقد أرهقني هذا الصراع .

سابين : وأنا أيضاً .

مدام فونتنيه : إنني في حاجة لاستنشاق الهواء .

سابين : [معترضة طريقها] بعد قليل . .

مدام فونتنيه : دعيني أذهب إلى الحديقة . . أتنفس !

سابين : [بصوت عال] ستتنفسين يا أمي . . عندما تنتشل ابنتي !

مدام فونتنيه : سابين ! كيف تكلمينني هكذا ؟

سابين : [متراجعة] نعم ! لقد قصرت في احترامك ! ذلك أنني لم أعرفك في هذا الخلاف الأول بيننا . ولم أعد أعرف نفسي .

[تخرج مدام فونتنيه من باب الحديقة]

المشهد السادس

[سابين .. مارى چان ثم مارتون يدخلان على التعاقب من باب الشقة]

مارى چان : آه ! أماه !

سابين : [وهى تضمها بين ذراعيها] ياحبيبتى ... يابنيتى المسكينة !

مارى چان : لست أنا موضع الاهتمام ، بل ديديه .. كم تعكر صفوه وهو يخفى عنى ! ما أشجعه ! ما أرقه ! أين هو ؟ إن عمله الملح القاسى هو الذى استدعاه دون شك . وهو الذى يمنعنى من أن ألقى بنفسى فى أحضانه ! أخيراً ، ما دمنا نعرف الحقيقة جميعا ، فقد اقترب من نهاية آلامه .. هل سرّيت عنه ؟

سابين : عندما انصرف .. لم يكن حديثى مع جدتك قد جرى بعد .

مارى چان : هل سويت الأمور ؟

سابين : كلا ! فقد اعترضتنى أمى بقسم يبدو أن أبى أملاه عليها ساعة وفاته بألا تعطى أى قرض . . لقد صدمت برفض قاطع . .

مارافون : ما أبشع هذا !

ماري جان : أمى العزيزة ! عندما يلجأ رجل شجاع أمين مثل ديديه إلى أسرته ، فإن ما يطلبه يكون حقا له ، إذا كان فى طاقة الأسرة إجابته .

سابين : إن الحاحى لم ينجح إلا فى حمل جدتك على مغادرة المكان لقد تسامحت بعنادها ، إنها هناك . . . ولكنى لا أنصحك بأن تلجئى إليها بدورك فأنا أشعر بأنها لن تلتفى .

مارافون : إذن فهى الكارثة !

ماري جان : أمى ، ستحولين دون وقوعها . لن تتخلى عن ديديه . ماذا ستعملين ؟ ابحثى ! . . قولى ! . .

سابين : [إلى ماراثون] لنتدبر الأمر . وعلى الرغم من أنني لا أملك ثروة ما تحت تصرفك ، فأنا أمثل ما سأمتلك منذ الآن . لقد خطر لي ذلك في التو عند وفاة أمي .

ماري جان : نعم ! يمكنك أن تقترضي .

ماراثون : لن تجدي مالا إلا لدى المرابين . وبقدر هزيل . سيقولون لك إن مدام فونتنيه قد تضع في صالح حفيدتها شروطا تمس حق دائنك في قليل أو كثير . وسيعترضون خاصة بقولهم ، إنك إذا توفيت قبل أمك فان ترثي ، وأنه لن يكون ثمة أحد في هذه الحالة بل ولاشيء للوفاء بدينك .

ماري جان : ولكن يمكنني من ناحيتي أن أضمن توقيع أمي . ولن يزعموا أن جدتي ستدفنا نحن الاثنتين ! .

ماراثون : أما أنت فسترثين تحت نظام حفظ البائنة . فما تقرين أنك مدينة به يمنعك القانون

نفسه من تسديده . فتوقيعك هذه الحالة لا قيمة له كذلك .

مارى چان : رباه ! كيف أكون عاجزة عن إنقاذ النفس المعذبة التى تتألم هناك . والتى أشعر أنها تتألم من أجلى ؟

مارافون : سأذهب لأطلع ابنى على ما جرى فى بيته منذ أن افترقنا .

مارى چان : قل له إننى لم أصحبك حتى لا أسبب له اضطراباً أمام الأغراب . قل له إننى أحبه من كل قلبى ! بل إن حبى له قد زاد ! وإننى أنتظره .

[يخرج مارافون]

المشهد السابع

سابين . . . مارى چان

سابين : لو لم أكن قد تحطمت أمام جدتك بمقاومة من هذه المقاومات المطلقة ، كتلك التى

تنشأ عن أزمات الضمير ، لو أنها قبلت فقط تقديم مساهمة . لأمكن إصلاح الأمر . . ولأخذت على عاتقي أن أقوم بأعسر الخطوات ، ولأسرعت إلى أصدقائنا ، ولحصلت بالتأكيد على مساهمات من جهات مختلفة ، أيا كانت قيمتها . . ولكنني لا أستطيع أن أتقدم إلى أي شخص وأقول له : كم تريد أن تقدم ؟ إن أمي لا تقدم شيئاً !

ماري جان : لا تملك الخيار بين الوسائل ، فانجرب هذه !

سابين : يجب أن نجد لنا أصدقاء من طراز نادر ، ومن نوع ليس لنا منه .

ماري جان : لك صديق يا أمي . . وهو ثري جدا . . ويحبك حبا شديداً .

سابين : أنا . .

ماري جان : صديق أراد أن يتزوج منك :

سابين : أوه ! مارى چان ! لا تمسى هذه الذكرى فى لحظة بلغت فيها من توتر الأعصاب ومن الألم هذا المبلغ . إن الصديق الذى تشيرين إليه لم يعد صديقى . وأنا أجهل مكانه ومصيره .

مارى چان : كيف ؟ أبعد ارتباطكما الوثيق منذ الطفولة ، هل يمكن ألا تستمرا فى التراسل ، من باب المجاملة على الأقل !

سابين : لقد كتبت له لأخبره أن زواجك قد تقرر . وكنت أرجو منه رداً . . لست أدرى أى رد . . . كان يجب علىّ ألا أكاتبه ، إذ كان قد أخبرنى بعزمه على ألا يسمع كلمة منى . لقد أوفى بوعده . . وأعيد إلى خطابى ثانية ، دون أن يفتح .

مارى چان : لقد اتخذ هذا الموقف فى فترة الغضب الأولى . لا بد وأن رقته قد عاودته . أظن أننى أذكر أين تقع أملاك أسرته

فى أمريكا . . . كانت تدعى :
« بلانش كوت » ؟

سابين : نعم .

مارى جان : كانت على مقربة من أورليان الجديدة .
أليس كذلك ؟ فى ولاية لويزيانا . .

سابين : نعم . لكن ما أهمية هذا ؟

مارى جان : [متجهة نحو المكتب] ديديه عنده قاموس
عناوين خارجية على مكتبه . . سأرى
إذا ما كان العنوان الذى نريده مذكوراً
فيه . فالنسخة جديدة ، طبعة هذا العام .

سابين : أرجوك . لا تبحثى . . . دعى هـذا
الكتاب . لا تحاولى شيئاً يبعث ماضياً
بذلت كل جهدى لأنساه .

مارى جان : ها هو ذا ! لقد وجدته : بلانش كوت :
استغلال مناجم ملح ومناجم فضة . . .
مزارع قطن وقصب سكر . المالك
ستانچى وبين قوسين الحرفان الأولان

من اسمه « ن . ج » .

سابين : نوربرت - جورج !

مارى جان : ها قد عثرنا عليه ! إنه هو بعينه ! اقتربى . . انظرى بنفسك .

سابين : [ترضخ لهذا الطلب] يخيل إلى أننى أتهجى - على قبر - اسماً يضطرب له قلبى .

مارى جان : إن السيد سانجى ما زال حياً .. ونشاطه .. نشاطه . كما تقرأين الدليل على ذلك . يحرك دون شك الكثير من رءوس الأموال بالحركات الواسعة المعروفة لدى أهل الدنيا الجديدة . وفضلا عن ذلك ، فما دام قد عرض عليك الزواج ، فليس ثمة شخص أفضل منه يمكن أن يثق فيك ، فيكتفى بضمانك ويبادر إلى خدمتك . فهو يبدو لى من كل الوجوه ، الشخص الذى تبعثه العناية الإلهية لخلاصنا . . . اكتبى إليه خطاباً طويلا يفسر كل شىء ،

ولديه متسع من الوقت ليتسلمه . ويجيبه
عليه . . أمى العزيزة ! هاك قلما وحبراً
وورقاً . عجلى واكتبى إلى السيد ستانچى .

مابين : أذكره بنفسى بطلب المال ! أظهر أمامه
من جديد فى هيئة مستجدية . . فى صورة
إحدى معارفه فيما مضى ، وقد صارت
شخصاً مضجراً . . أوه ! كلا !
آرين ! . . إننى أصر على أن أعتقد
لأعوض حبه الذى فقدته . أن هناك
على كل حال رباطاً يربط بيننا ، رباطاً يقوم
على احترامه وكرامتى . . لا تطلبى إلى
أن أهدم هذا أيضاً . . وأن أحط من
قدرى فى عينيه ! لن أجد لدى الشجاعة
لأقوم بذلك .

مارى جان : وأنى لى أن أجد الشجاعة إذا قالت
جدتى . « لا أعطى المال الذى أملك » .
وإذا أضافت أمى : « إننى لا أكتب
الخطاب الذى يمكننى أن أكتبه ؟ » . فما

الذى أملك فعله من أجل زوجى ؟

سابين : لقد أسأت التعبير . إننى لا أخضع لما تحليه كبرياء زائفة . . ولا لأبسط ما تقضى به الكرامة . إننى أحس أن ثمة شيئاً أعمق وأقوى سلطانا يمسك بى . إنه لون من الخجل إزاء هذا الرجل . . خجل عميق كامل منه لأنه أجنبى . . ولأننى سأتخيل أننى ابتز ماله بذكرى عاطفة مقدسة ، وأننى أتحمل بذلك رائحة حب يدفع ثمنه . افهمى ذلك إذن . قولى لى إنك تفهمين شعورى .. فأنت أيضا امرأة .

مارى جو . إننى امرأة نعم . . امرأة ديديه . . والفكرة التى تستحوذ علىّ هى زوجى . إن عينى لا يمكنهما أن تتحولا عن المنفذ الذى يخرجه من آلامه ، إننى أصر بكل قوة يا أمى على أن تكتبى إلى السيد ستانجى . .

سابين : إنك ترغمينى على سؤال ضميرى . . وعلى أن أتساءل إذا لم تكن المقاومة التى أواجهك بها مقاومة فسد كيانها . . لكن لا ! . . إننى أسترجع من جديد اللحظة التى كان على أن أتخذ فيها قرارا بالنسبة إلى نفس الرجل . وقد آثرتك — دون تحفظ — على نفسى . إذن ليس على أن أحذر ما توحيه إلى غريزتى اليوم ، وإذا أنا توقفت الآن ، فليس ذلك دون شك ، إلا إزاء أمر أعـــده فظاظة قلب ودنس روح .

هارى چان : أيبدو لك أن الشىء الأنظف هو أن ترى ابنتك وزوجها وقـد تسربلا بالديون وهويا فى هوة السوء ! حقا ! عندما أرى ما وصلنا إليه جميعا اليوم . . اسمحى لى أن آسف لأنك لم تقبلى فيما مضى عرض السيد ستانچى الذى لا غبار عليه . وبدلا من أن يكون الآن غريبا لا تجترئين على

الالتجاء إليه . كان خليقا أن يكون هنا اليوم بدله يساعد فى دعم بيت ابنة زوجته .

سابين : أتتهمينى بالإساءة إليك ؟

مارى چان : أوه ! إننى لا أتهمك . . وإذا كنت قد أخطأت . . فأنا أعرف أن الباعث على ذلك هو شدة حبك لى ، لكننى أجن لأننا لا نصل إلى شىء . ولأننى سأظهر من جديد أمام عزيزى ديديه خاوية اليدين . . بدلا من أن يكون فى استطاعتى أن أقول له : « تذرع بالأمل . . لقد فعلنا هذا . . » وإننى لأفكر فى التضحية البالغة التى ظننت أنك أحسنت صنعا بإتيانها فيما مضى . فلا أستطيع أن أمنع نفسى من أن أرى أن هذه التضحية تقع الآن علىّ .

سابين : كفى يا مارى چان . ما دمت تحكمين على

الأمر على هذا النحو .. حسنا .. سأحاول
أن أعوض لك الخطأ الذى تنسبينه إلى .

مرى جان : آه ! يا أمى العزيزة ! لا أستطيع أن أندم
على كلامى ما دام يتيح لى أن أشكرك مرة
أخرى . وكلانا تجهل ما ستصيبين من
حظ فى مسعاك .. ولكن بين الأمانى
التى أتمناها .. تخطر لى أمنية كفاء
مجهودك العظيم .

سابين لقد عزمت على العمل دون أمل فى أن
أنال أى مثوبة .

مارى جان : اسمحى لى مع ذلك بأن أنهى إليك الخاطر
الذى أوحى به إلىّ اضطرابك ونبرة
صوتك منذ حين . إن هذا الصديق الذى
كنت تكنين له معزة أكثر مما أتصور ،
والذى تخليت عنه بدافع من الحنان
الأموى . لعل ابنتك هى التى ستعيده
إليك بدفعك إلى كتابة هذا الخطاب ؟

سابين : أيدور بخلدك أن ستانچى يمكن أن يعود ؟ من أين تأتين بفرض مثل هـــذا ؟ يا للجنون ! إننى أفترض أنه لم يعد يحمل لى فى نفسه حقدا ، وأنه مستعد أن يقدم عن طيب خاطر ، حلا لكل ما سأخبره به من مضايقات وأزمات . . ولكن هذا هو كل ما فى الأمر ! فشاغله منظمة . . ونحن لا نعرف شيئاً عما فى حياته منذ أربع سنوات . هو ! يعود ؟ آه ! إذا حدث المستحيل وجاء ، فلا أتمنى أبداً أن يرانى ثانية .

مارى چان : [تقدم لها مرآة] ولم ذلك ! إنك لا تزالين كما كنت دائما . لا تزالين فى شبابك وفى فتنتك التى كنت عليها حينما كان هنا .

سابين : [وهى تعيـد المرآة دون أن تقبل النظر إلى نفسها فيها] ما أكثر ما تتوهمينه عن أمك ، يا عزيزتى المسكينة ! دعك من

هذا ، فلن تجعليني أصدق أنني لم أتغير . . . كفاك حديثاً إلى ، دعيني أكتب إليه ببرود ، ووضوح ، بحيث يقتنع بأنني لا أستدعيه . . « يا صديقي العزيز . . » كلا . [تمزق الورقة] . . « يا عزيزي ستانجي . . [يبدو أنها تفكر في العبارات التي تكتبها . . وتمد يدها نحو المرآة ، وبعد أن تنظر إلى نفسها تقول في حسم] إذن فأنت تعتقدين أنني لم أتغير كثيراً ؟ . .

الفصل الثالث .

المنظر . . [نفس المنظر فى الفصل الأول]

المشهد الأول

الوصيفة : [وحدها تبحث بين قطع الأثاث]

وهل أعرف أنا أين ألقت

هذه العجوز بطرازها !

المشهد الثانى

مارافون : هلا ذهبت ونظرت إذا كانوا قد أخبروا السيد ديديه بزيارتى .

الوصيفة : نعم يا سيدى .

[تخرج]

المشهد الثالث

[ماراڤون . . مدام فونتنيه داخلة دون أن تراه]

مدام فونتنيه : وبعد يا چيني ؟ ألا تنتهين من البحث ؟ [وهى تلمح ماراڤون] أنت هنا ، فى العاشرة صباحاً ؟ أرجو ألا يكون ذلك بموجب أمر لك لتثور أنت أيضاً أمامى ؟

ماراڤون : كلا أيتها الصديقة العزيزة ! ما جئت لمقابلتك ، ولكن لمقابلة ابنى الذى لم يعد له من بيت سوى بيتك بعد أن أعان إفلاسه بموافقتك .

مدام فونتنيه : إذ اللوم على طرف لسانك . . . هل ألومك أنا على ما سببه ابنك لعائلتى من إزعاج ؟ هل وجهت إليه أنا أى كلمة لوم ؟ كلمة قاسية واحدة ؟ لقد قلت له : « تعال أنت وزوجك إلى بيتى . . . وستكونان فى بيتكما تماماً » . والواقع أنهما هنا فى بيتهما ، فى حين أننى لم أعد فى

بيتى على الإطلاق . فلقد اضطررت مساء أمس أن أهرب من هذه الغرفة أمام الهجوم الشديد الذى شنه على ابنتى وحفيدتى وزوجها جميعاً . لم يعودوا يخيفوننى بمسألة الإفلاس، ما دام الإفلاس قد وقع فعلا ولم تنشق الأرض ، وما زلنا جميعاً بحمد الله على قيد الحياة . لكنهم يتذرعون فى مهاجمتى بذريعة جديدة : « الوصول إلى مصالحة ابنك مع دائنيه ويريدون أن أضع فى سبيل ذلك مائة ألف فرنك على الأقل» :

مارافون ـ : يا مدام فونتنيه ، إذا لم يكن إفلاس ديديه قد سبب الموت لأحد ، فباستطاعتى أن أخبرك بأن الفضل فى ذلك يرجع لمارى جان ، ولمدام ريشيل ، ولى ٥ فقد مضت عدة أيام لو ترك خلالها ابنى التعس وحده دقيقة واحدة ، لأغرق

نفسه فى نهر السين بقفزة واحدة من بيته هناك . ولقد استطعنا نحن الثلاثة أن نجعله ينصرف إلى واجبه الحقيقى ، ألا وهو السعى منذ الآن لرد اعتباره التجارى . غير أنه لكى يستطيع السير فى هذا الطريق ، لا بد له أولا أن يخرج من حالة الإفلاس التى لا يستطيع معها أن يقوم بأى عمل ، ولا بتنفيذ أى مشروع ، ولا بشراء أو بيع أو استلام أو دفع . فهيئة دائنيه الذين دُعى أمامهم ظهر اليوم أى بعد حين . . سيبتون فى مصيره بصفة نهائية ، وفقاً لما إذا كان باستطاعته أن يضيف مائة ألف فرنك إلى الأصل الذى يتركه أم لا . فلا تلومى ديديه لما قد يكون بدا منه من خشونة ، فى هذه الفترة العصيبة ، إذ طلب منك أن تهيئى له الوسائل ليعود مواطناً ، ورجلا ، رجلا حراً مثل غيره من الرجال . .

مدام فونتنيه : فليعلن ابنك لهؤلاء القوم الذين يخاصمونه :
« اقتسموا ما أملك ، ولا تسألونى
ما لا أملك ! وليقل لهم أيضاً : « كفوا »
عن تهويش الجدة على وجه الخصوص
أنها امرأة ضارية لا قلب لها بالنسبة
لأصحاب الديون ! . إن رأسها عنيد
صعب المراس ، وقد رأت من قبل
الأموال تذوب كالثلج فى الشمس من
جراء أعمال زوج ابنتها ! إنها عجوز
غبية . . »

ماراڤون : مدام فونتنيه ! . .

مدام فونتنيه : نعم ! نعم ! ليقل لهم إننى عجوز غبية لى
طريقتى فى فهم المشاعر ، وإننى أرانى
مرتبطة بعهد بسيط أخذته على نفسى أمام
فراش موت زوجى ! .

ماراڤون : اسمحى لى . .

مدام فونتنيه : كلا يا ماراڤون ، لقد تناقشت فى الأمر

بما فيه الكفاية حتى الواحدة صباحاً مع ابنك ومع هاتين الشريرتين ، وما جئت إلى هنا إلا لأعاود ما كنت أقوم به من تطريز بعد أن تركته فى ساحة المعركة . لم يكن هدفك إلا أن تتحدث إلى ابنك ، إننى لأسمع خطوات مقبلة من جهة جناحه . . وإنى لأنسحب .

[تخرج مدام فونتنيه]

المشهد الرابع

[ماراڤون . . . ديديه]

ماراڤون : عم صباحاً ، يا عزيزى ديديه .

ديديه : معذرة إذا كنت قد جعلتك تنتظر . لم أعد أدرى إلام وصلت بى الحال : أولا . . وهذا ما يفوق كل شىء ، لقد سببت لى مارى چان منذ بضع ساعات أقسى أنواع القلق . .

ماراڤون : كيف هذا ؟ ولكن مدام فونتنيه التى استقبلتنى هنا لم تلمح بأية إشارة إلى هذا الموضوع .

ديديه : إنها تجهل ذلك دون ريب . فنحن هنا منقسمون فريقين لا سبيل لصلة بينهما . إنك تعلم أن مارى چان قد أخذت فى اغزال منذ أن قدر لها مشاطرتى مخاوفى . . ولقد بدأت منذ أسبوعين تثير القلق فى نفسى بسبب نوبات الشحوب أو الاحمرار التى تتصاعد فجأة إلى وجناتها لكلمة تعلو على سواها من الكلمات ، أو لقرقعة فى خشب الأثاث . . وفى الليلة الأخيرة — وكانت عاصفة لاغاية — عندما قطعت الجدة صلتها بنـــاء ، وصكت الباب ، وذهبت إلى غرفتها ، أصابت الغشية مارى چان فجأة ، وكان السخط قد بلغ منها كل مبلغ أثناء الشجار ، فسقطت على ظهرها بين ذراعى .

ماراقون : أوه ! ماذا !

ديديه : وحملناها إلى فراشها ، وظلت مغشياً عليها طيلة ربع ساعة . . كان الوقت متأخراً بحيث لم يكن معنا أحد من الخدم ، فاضطررت أن أترك زوجى فى عناية أمها ، وأسرعت عادياً لأحضر بنفسى طبيب الأسرة .

ماراقون : وماذا كان رأيه ؟

ديديه : لقد ألححت عليه أنا ومدام ريفيل حتى نجعله يقول لنا إن الحالة ليست خطيرة ، فلم يقل ذلك ! ووعد بأن يعلن رأيه هذا الصباح . . وقد استعمل هذه العبارة : « إنه نصل ينخر فى غمده » . ولقد سألنا عدة أسئلة كما لو كان يخشى أن تكون مارى جان قد اختلط عقلها . وقد لاحظ أن تعبير العينين ينم عن الأثر الداخلى لفكرة ثابتة متسلطة عليها : « إن هذا الهم هو ما يجب

التعجيل باستئصاله » . وكنت أنا وحماتى نستمع إليه فى ذهول ، وينظر أحدنا إلى الآخر فى يأس . فما العمل ؟ لم يكن فى وسعنا الاعتماد على إحدى المعجزات . . ومع ذلك . . فقد وقعت المعجزة .

ماراڤون : ماذا تعنى ؟

ديديه : لقد سهرنا على مارى جان حتى مطلع الفجر ، وعندئذ انسحبت حماتى لتصيب شيئاً من الراحة . وحول الثامنة والنصف وكنت قد تسلمت بريدى للتو ، عادت مدام ريڤيل فجأة واقتربت من ابنتها ، وكان التأثر بادياً عليها ، فطوقت زوجتى بذراعيها وقالت بصـــوت متقطع : « فلتسعدى يا بنيتى ، ولا تحملى هماً ! إن الأمور كلها ستسوى . . سيحصل ديديه على المال اللازم للمصالحة » ؛ ولقد انقضت أيام وزوجى العزيزة المسكينة تكرر هذا الاصطلاح القانونى

الذى خلق لأفواه قضاة التفليسات وآذان حراسها . إنها تكرر هذا الاصطلاح وتستمع إليه كأنه كلمة حب . ولما سمعت ذلك تغير وجهها تماماً . وكنا كلانا متلهفين إلى معرفة المزيد . لكن حماتى قابلتنا بكتمان شديد لم ندرك له كنها . ومع هذا ، لم تنكر . ولم تهز كتفيها عندما صاحت بها مارى جان فرحة : « لقد تسلمت رد السيد ستانجى ! آه ! ترين الآن أن فكرتى كانت صائبة . . كم أهنئ نفسى بذلك ! وما أشد سرورى ! » . ولم تقبل مدام ريفيل إعطاء أى تفسير ، وتخلصت من عناق ابنتها بهذه العبارة السحرية : « دعينى أذهب ، وأحضر المائتى ألف فرنك التى نحتاجها » . وعلى هذا خرجت منذ ساعتين تقريباً ، وإنك لتقدر بأى لهفة نترقب عودتها !

الوصيفة : [داخلة] حضر السيد الطبيب .

ديدييه : أدخليه إلى مخدع زوجتى . سأذهب إليها ..

[تخرج الوصيفة] أستميحك عذرا !

ماراڤون : سأنتظر ما يقوله .

[يخرج ديدييه]

المشهد الخامس

[ماراڤون . . . سابين]

[تدخل مرتدية ثياب الخروج تضع على رأسها قبعة وتلبس قفازا . يبدو على محياها الشرود]

ماراڤون : آه ! أيتها الصديقة العزيزة . . أنا فى لهفة لأن تؤكدى لى ما أنبأنى به ديدييه لتوه .

سابين : ماذا ؟ ما الذى أنبأك به ؟

ماراڤون : لقد تركته للتخمينات ! لكننى أظن كما يظن ابنى وزوجه أنك تسلمت من أمريكا الرد الذى تأخر شهرين .

سابين : ستانجى لم يرد على خطابى .

ماراڤون : إذن فما هو الحدث الجديد الذى وقع ؟

سابين : كل شيء ما زال على ما هو عليه . . . لم يتغير شيء .

ماراڤون : ما معنى هذا كله ؟ لم تظهرين بهذه السحنة المقلوبة ؟ من أين تقبلين . . بحالتك هذه ؟

سابين : لا تفرط فى استغلال ما ترانى عليه من اضطراب . . لا تسألنى عن شيء . . ودعنى أستجمع قواى ، وأركن إلى الصمت . [تتهالك على مقعد ثم تنهض بحرارة] كلا . . أفضل أن أستمع إلى الثرثرة . تكلم فما دمت قد قابلت ديديه ، أتعرف رفض أمى الأخير ؟ .

ماراڤون : أعرفه .

سابين : وبهذه المناسبة . . عندى شيء لا يسوءنى أن أقوله لك ! . نعم لك ! لقد سمعت أثناء شجارنا العنيف وكنا فيه كأسرة

ملئت قلوب أفرادها حقدا على بعضهم البعض[1] . . لقد سمعت طنينا فى نفسى بسبب غشية بسيطة اعترتنى ، سمعت طنين حديث دار بيننا فيما مضى فى غرفة الاستقبال هذه . . لقد كنت تزعم حينئذ أن مبادئ الطبيعة تفرض على الوالدين — أرادا أم لم يردا — أن يتجردا من كل شىء لصالح أولادهما . . وهكذا بينما كنت أسمع كلامك للمرة الثانية . . كنت أرى ابنتى تتنهد وهى تضم يديها المتضرعتين ، وكنت أرى تقطب حاجبيها وتعض شفتيها وتشير أن : لا . . لا دائما . . ها ! ها ! ها ! إن البون لشاسع بين نظرياتك وبين الواقع ! .

ماراقون : لست أدافع عن مدام فونتنيه . ولست

---

(١) فى الأصل كلمة من أسرات الاتريد . وهو اسم يدل على سلالة « أتريه » وخاصة أجاممنون . ومنيلاس . ويشار إليهما كثيراً وإلى الجرائم التى سودت تاريخ عائلاتهم .

أهاجمها كذلك . أقول فقط ، بأنها طاعنة
فى السن ، وأنها فى سنها هذه كامرأة
جفت لديهـــا كل ينابيع الأمومة .
« فتجردت من الإنسانية » فلدى الشيوخ
تخرس أصوات الطبيعة شيئا فشيئا .
لا تدينى مدام فونتنيه ، لكن افهمينا .

سابين : وهكذا تبقى فلسفتك صامدة ! إنك تفسر لنفسك بكل هدوء ، أن يقتصر صنيع جدة مع ابنتها على هذه الحسنة من الخبز والمسكن ، التى يهبها الناس لعابر سبيل يقبل من حيث لا يعرفون وهم لا يرونه بعد ذلك أبدا .

ماراڤون : أكرر لك أن الطاعنين فى السن قد جبلوا عادة على ذلك ، فهذه الرءوس التى ابيضت ، وهذه القوى التى تجلدت . إن هى إلا جبال ثلجية ، ومراكز اقتصاد للمال . لا ينفلت منها إلا فى جداول ضيقة ، كما تتوزع المياه من الجبال .

ولن يمكنك أبدا أن تغيرى هذا النظام الأساسى للأشياء .

سابين : إذن لماذا يبقى حق التمتع بجميع الحقوق الإنسانية لمن لم يعد لهم نصيب كامل من المشاعر الإنسانية ؟ أليس عدلا أن يكون تجرد أمى من العواطف الإنسانية فى شيخوختها شفيعاً لى فى الحجر عليها وتجريدها مما تملك ، وفى أن أحل محلها فى السيطرة على أموالها التى سأستعملها استعمالا مجديا ؟ أليس فظيعاً أن يكون أمل الشباب أسير هذه الإرادة المشرفة على نهايتها ، وأن يحتضر مستقبلهم النابض بين هذه الأيدى الباردة أو يكاد ؟ قل إن هذا غير محتمل ! قل إن كل شىء مباح لمواجهة هذا الأمر ! تكلم ! تكلم إذن ! .

ماراڤون : يا صديقتى ! يا صديقتى المسكينة ، لقد كنت تتهمينى بأننى نذير شؤم عندما قلت لك يوماً إن حب الأبناء لوالديهم لا يصمد أمام المحن . واليوم حين يمتحنك القدر ، تهبط نفسك المتحضرة فجأة إلى مستوى الهنود الحمر . إننى أسمعك تتحدثين عن يدى أمك المرمتين بنفس الروح التى يتكلم بها من يعلقون رب الأسرة على شجرة ويهزونها ليروا أيستطيع أن يتشبث بها ، أم أنه لم يعد ثمة شىء سوى الإجهاز عليه .

سابين : لا . . لا تجعلنى أعتقد أننى أتمنى موت أمى . . أوه . . أوه ! كلا ! . . إنها كارثة لست مستعدة لها . . إننى لم أبلغ بعد هذا الحد !

ماراڤون : إذا كنت لم تبلغى هذا الحد . . فأين أنت الآن ؟

سابين : أرجوك ! إن لهجتك غريبة . لماذا

تسبر غور عينى على هـــذا النحو ؟ . .
لا داعى لأن تسألنى عما فعلت .
إذا كنت تحدس ذلك .

مارائون : أنا لا أحدس بشىء . . إننى . .

سابين : دع عنك هذا . . إنك تقرأ ما فى نفسى ! لقد رميتنى منذ هنيهة بالوحشية .. ماذا يفعل المتوحشون عندما يخزب الأمر ، ويكون المطلوب فى متناول أيديهم ؟ نعم ، لقد اعتقدت أن ابنتى تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وقد عاونت فى نقل جسدها الذى لم يعد يزن سوى نصف وزنها . لقـــد شاهدتها على وسادتها تهوى من ضعف إلى ضعف ، وعندئذ لم يكن فى مقدورى أن أجد الدواء الوحيد الذى يشير به الطبيب علىَّ . . فى مكان آخر . . غير الأدراج التى تحتفظ أمى فيها بســـنداتها وأسهمها .

ماراڤون : هل فعلت ؟

سابين : نعم !

ماراڤون : أوه !

سابين : أنت يامن يهتز قلبه طيبة أيام عديدة مع قلبي . . ثق أننى إذا كنت أحجمت حتى الآن عن التفريج عما يثقل على صدرى . . فليس السبب فى ذلك أننى أخجل من عملى . . فأنا لا ألوم نفسى إلا لأننى فشلت فيه .

ماراڤون : ماذا فعلت ؟ ماذا فعلت ؟

سابين : سأقول لك . . سأقول لك كل شيء . أصغ إلى ، لم أكن قد أدرت الأمر بخاطرى . . بل لم أكن قد فكرت فيه قط قبل تلك الليلة . . وفجأة خطرت لى الفكـــرة . وأنا بقرب فراش مارى چان . . كانت الساعة الرابعة صباحاً ، وعقدت عزمى فى الحال . . فتركت المقعد الذى كنت أقضى الليل

ساهرة عليه . ودلفت إلى هنا . .
وندت صرخة من أمى . . ولم يكن
فى الأمر شىء . . كانت تحلم . .
وتلمست طريقى فى حذر إلى النافذة ،
وفرجت الستارة بحيث تسمح لشعاع
دقيق من أشعة الفجر بأن ينفذ إلى
الحجرة . . والآن هيا إلى العمل !
وحتى لو حدث أن استيقظت أمى
واعترضتنى . وبادتنى . . فسأكون
أعلى منها صوتاً لأقول : « صمتاً !
إنى أنا ! نعم أنا التى لا تريد لابنتها
أن تجن أو أن تموت ! وأخذت
مجموعة المفاتيح الموضوعة على رخامة
الصوان الصغير ، وفتحت الصوان . .
وكنت أروح وأغدو متلصصة بين مخبأ
السندات المالية والشعاع المتهافت الذى
كنت أميز تحته ما أختار . وكانت أمى
تتكلم بصوت مبحوح تحت تأثير

الكابوس ، وكانت بين الحين والحين تصيح : « آه ! آه ! » بصوت مرتفع حتى ظننت أنى أيقظتها . كلا كانت نائمة . أرانى أثير اشمئزازك .

ماراتون : لا أستطيع أن أحدد ما أستشعره . . وأنا لا أحكم عليك فى هذه اللحظة . . إننى أتابع حديثك ، فواصليه حتى النهاية .

سابين : لما عدت إلى غرفتى كنت أحمل ثلاث ورقات اسمية بمائة سند . وكان ذلك أكثر مما أحتاج إليه . أما عن كيفية تحويل هـذه الأوراق إلى أموال . فقد كنت أعرف كيف يتم ذلك . . فلقد صحبت أمى عدة مرات إلى سمسار الأوراق المالية . . وتعلمت بذلك الألفاظ المقدسة . . طلب التحويل . . التاريخ . . التوقيع . . وبقيت ساعات أتدرب على التقليد . وأنا أتبع نموذجاً

على مسودات كثيرة . فلما وصلت إلى أن أحقق بصفة نهائية التزويرات الثلاثة على الأوراق المدموغة . . كنت قد قاربت الكمال . وكان على بعدئذ أن أتقدم إلى السمسار وأواجهه وأفرض شخصى عليه . . ومما لا شك فيه أنه يعرفنى منذ عهد بعيد . . فقد كان زميلا لأبى . . ولقد تناولت أنت العشاء معـــه فى بيتنا . وكان المفروض أن يلقانى بالثقة والاحترام ، وهكذا استقبلنى بالفعل . . ولما وصلت إلى هناك . . قلت إن أى متعبة . . . ولم يدهش قولى هذا رجلا دائم التردد على بيتنا . وعرضت أننا نتعجل تصفية أعمال زوج ابنتى الذى كان أمر إفلاسه معروفاً للجميع . وما دمت قد أحضرت من الأوراق ما يغطى المبلغ المطلوب ، فقد طلبت أن يقدم إلى المبلغ على

الفور ، كما يفعل الناس عادة مع العملاء القدامى والأصدقاء المقربين .

مارافون : لم تكن أمك هى التى ستسرقينها ، ولكنه موظف الحكومة المسئول عن تهاونه .

سابين : آه ! لم أفكر فى ذلك . وعلى كل حال ، فلن يكون لأمى أمام الأمر الواقع إلا أن تدفع ، إذ أنها لم تبلغ من القسوة ، مهما يكن الأمر ، بحيث تقدمنى للحكم على بالسجن . لقد قاطعتنى . . إلى أين بلغت فى حديثى ؟ آه ! هذه النقطة . . . لقد أجلسنى السمسار فى مكتبه فى ترحاب شديد . . . وتأكد من أن فى خزانته ما يكفى بأن يدفع مائة ألف فرنك التى أطلبها . . وبينما كان يفحص المستندات . أحضر أحد الموظفين رزمة المال ، وإيصالا معداً للتوقيع . . ثم أصبحت أنا والسمسار وحيدين نثرثر ، وأخذ يعد الأوراق فى

بطء ، وكنت أسمعها واحدة واحدة . .
تصبح لى . تصبح انا . وتتكوم لتمد
ابنتى بدية حياتها وصحتها . . كنت سأحملها
بعد لحظة معى . وسيوزعها ابنك قبل
هذا المساء بمعرفته وستختفى . . واليوم
الذى تثار فيه الاستيضاحات ، سأقوم أنا
بتفسير كل شىء — وسيجدنى الناس
أمامهم لأتحمل تبعة مسلكى . . ومع ذلك
ظلت السندات الملعونة الموضوعة على
ركن من المنضدة تجذب أنظارى ،
وتمنيت ألا يخطر ببال الرجل الآخر أن
يمعن النظرة مرة أخرى ! ولكن حتى لو
ساوره شك مستحيل ، وحتى لو كانت
طريقة توقيع أمى منقوشة فى ذاكرته ،
فقد كنت أعرف بأية دقة رسمت كل
حرف من حروف اسمها . وكيف رسمت
التوقيع . وقال لى السمسار وهو يقدم
لى المبلغ مقابل الإيصال الذى وقعته :

« إن مبلغك لا خطأ فيه » . ووقفت بعد أن أودعت غنيمتى فى صدرى ، ورحت أفتح الباب عندما سمرتنى فى مكانى دهشة الرجل : « معذرة يا سيدتى ، لقد أخطأت : إنك توقعين على الإيصال باسم أملك ! » أجل ! كنت قد تمثلت خط أمى بتدريباتى الصغيرة الملحفة . . . حتى استقر توقيعها العادى على أطراف أصابعى ! وتحت تأثير هذه الصورة الثابتة فى ذهنى وبسبب ما اكتسبته من كمال آلى . وقعت أنا سابين ريشيل بتوقيع أرملة فرنتنيه ! وراح الرجل فى الحال يقارن التوقيع الذى رآنى أوقعه بالتوقيعات التى قدمت له . كان مظهر وجهى معبراً ! لقد انفضح أمرى . فألقيت بنفسى على قدمى هذا الرجل وأنا فى خبال أتوسل إليه ألا يسترد ثانية ما كسبت من مال . وا أسفاه ! ويا لها

من لحظات قاسية ! لم يكن الاعتراف هو أصعب ما فى الأمر . . . ولكن رد المبلغ . . لقد لقيت دموعى لدى هذا الصديق القديم لأسرتنا العطف الذى لا يهمنى . . منحنى ما أراه مناسباً من مهلة لأحصل على غفران أمى . . ولقد أخذ على عاتقه أن يعيد السندات بنفسه ، ولكن بعد أن أخطره بذلك . وخرجت من عنده وقد ذهب عقلى من فرط الهوان ، مجنونة من العجز ؛ كما ترانى عائدة إلى هنا الآن . . هذه هى القصة !

ماراڤون : هذه هى القصة ! نعم هذه هى القصة ! إنك لا تنتظرين منى أن أقر هذه الفعلة .. الجسيمة . إن لغة الأخلاق الجارية لتبدو فى نظرى هزيلة لا تكفى لاستنكارها . والثورة التى استقرت فى نفسك هى بلا شك ثورة إجرامية . ولكن إذا

كانت هناك جريمة ثورية فإن الخير والشر يتزحزحان قليلا عن مكانهما المخصص لهما على الدوام . لن أنظر إلى الأمر من وجهة النظر العملية ، لماذا لم تخاطرى بمغامرتك دون أن تنبسى بكلمة إلى المنتك ؟ وما الذى دفعك إلى أن تلوحى لها بمال لا تملكينه ، بمال لم تقدرى أخيراً أن تحصلى عليه ؟

سـ بن : إنك تتكلم كما لو كنت تتحدث إلى شخص احتفظ برباطة جأشه فلتفهم إذن أننى فى اللحظة التى تركت فيها هذه الجدران الوفية ، والتى كنت أشعر بأنها تحمينى ، مهما بلغ جرمى ، فى هذه اللحظة فقدت شعورى . فبحثت عن الدواء المقوى الذى يثبت عزيمتى وصوتى وحركتى . وكنت موقنة من النجاح ؛ إذا لم أرتجف ولم أتلعثم . ولكى أذكى

شجاعتى إلى أقصى حد ، أشعلت بل
ألهبت حماس مارى چان ، وبعث الحماس
فى نفسها وباقتباس ومضة إيمان وفرح
من عينيها ، انصهرت وقد سرى شىء
كالكهرباء فى ذاتى ، فمنحنى جرأة
لا تدع سبيلا إلى التراجع .

ماراقون : والآن بعد أن منحتها آمالا كاذبة فى
لحظة تتطلب فيها مشاعرها عناية
استثنائية ، ستنتزعينها من تلك الآمال ؛
وستنتزعينها انتزاعاً خطراً .

سابين : آه ! إنك لترى بوضوح أننى أوثر
اللحظة الفظيعة التى أقابلها فيها مرة
أخرى ، يجب ، بأى ثمن ، أن أطيل
حالة الوهم التى تعيش فيها ، بل وحالة
ابنك الذى قد يثور فيه ما تنطوى عليه
نفسه من استقامة أو حزن ، إذا لم
أخدعه هو أيضاً . إن أكاذيبى ستهدئ

من ثائرته دون أن تسبب له ضرراً .
فأتوسل إليك لذلك ألا تكذبنى أمامه .

مارافون : إننى أحتفظ بسرك كالقس الذى تلقى اعترافاً . .

سابين : أوه ! سأكذب ! سأكذب بشدة ! ولكن ليس فى حضرتك . إن وجودك سيجمدنى ولن أستطيع اختلاق القصص التى تعرف بطلاتها . لا تدخل معى إلى غرفة مارى جان . . وحتى لو أحست بتحسن فى صحتها ، فقد تأتى إلى هنا بين لحظة وأخرى . ولذلك أطلب إليك بإلحاح أن ترحل .

مارافون : اسمحى لى أن أنتظر فقط حتى أعرف نتيجة زيارة الطبيب .

سابين : كيف ! أهو فى غرفتها ؟ لقد فتحت الباب بمفتاحى ، ولم أر أحداً سواك . . ولم تخبرنى بشىء عنه .

ماراثون : لقـــد عرض لى ما قطع على حبل أفكارى : .

المشهد السادس

سابين . . ماراثون . . الطبيب . . ديديه

ديديه : [على عتبة الباب . . إلى الطبيب] آه ! لقد عادت حماتى ! :

سابين : تكلم يا دكتور ! كيف حال ابنتى ؟ .

الطبيب : أنا رهن مشورتك يا سيدتى العزيزة . [إلى ديديه] لن تســـمع منى هنا إلا تكراراً لكلامى السابق . : إلحق إذن بزوجتك حتى لا تشعر بأن صحتها تثير مداولات لا تنتهى . فليس ذلك فى صالحها مع حالتها الحساسة .

ديديه : أنا طوع أمرك [إلى سابين] هل أستطيع أن أنقل إليها أن كل شىء يجرى على ما يرام ؟ :

سابين : آه ! نعم . . بالتأكيد . . إلى اللقاء عما قليل ! . .

[يخرج ديديه] .

المشهد السابع

سابين ، مارافون . . الطبيب

سابين : [إلى الطبيب] حسناً ؟

الطبيب : حسناً ! إننا أمام نوع من انهيار الجهاز العصبي . . من ذلك النوع الذى تسببه الأزمات النفسية والانفعالات الحزينة . . فهذا الإغماء الذى رفعت ابنتك منه ، ونوبات الدوار التى تشكو منها ، وهذا الوجه الذى يذبل بينما تتلون الوجنات ، هذه كلها الأعراض الأولى لمرض السل !

سابين : يا إلهى ! يا إلهى !

الطبيب : إن لابنتك شبابها ، ولا تزال بنيتها تسمح

بالكثير ، وسنحاول أن نعيد إليها صحتها ! أين أستطيع أن أحرر تذكرة الدواء ؟ !

سابين : أجلس هنا وفكر جيداً ، واستوح كل ما يستطيع العلم أن يأتيه .

الطبيب : [وقد جلس إلى منضدة] لدى أدوية قليلة لأصفها . . أما الذى أعتبره فعالا بل ضرورياً ، فإنما هو علاج فى الهواء الطلق يستمر مدة طويلة فى جو من الأجواء الشديدة اللافحة التى تبعث النشاط فى الجسم ، مثل جو قمة مالوجا بوادى أنجادين فى سويسرة . . إننا الآن فى منتصف يونيو . . وإلى نهاية أغسطس أى قبل أن تبدأ الثلوج فى السقوط هناك ، تستطيع المريضة أن تفيد من شهرين ونصف شهر من التأثير المقوى المجدى ، إذا لم تضيعوا يوماً فى نقلها إلى هناك .

سابين : لا بد لنا من وقت للاستعداد .

الطبيب : اختصروه بقدر الطاقة . وغيّري مقام ابنتك فجأة .

سابين : حسناً . ستكون فى طريقها إلى هناك منذ الغد .

ماراڤون : أملى خيراً يا صـــديقتى العزيزة ، وتشجعى . وإننى لأخلصك من وجودى .. وسأبتعد مؤقتاً عملا برغبتك .

سابين : [توصله إلى الباب] أجل ، هو ذاك ، ستعود فيما بعد .

الطبيب : [من المنضدة حيث يكتب] وهذه السيدة الطيبة مدام فونتنيه ، هل صحتها على ما يرام فى الوقت الحاضر ؟

سابين : نعم . . صحتها لا بأس بها [إلى ماراڤون] حقاً . . إنك توفر على مقابلة لعلك تحس بوضوح أننى لست مستعدة لها ، إذا مررت بأمى قبل انصرافك ، هلا

أخبرتها بهذه السفرة العاجلة وبالأسباب الملحة التى تدعو إليها . .

مارافون : أنا فى خـــدمتك ! وهل تنوين مصاحبتها ؟ .

سابين : لم أفكر فى الافتراق عن ابنتى .

[يخرج مارافون] .

المشهد الثامن

سابين . . . الطبيب

الطبيب : هذه هى التعليمات التى أستطيع إعطاءها . ولكننى أكرر قليلا : فى هذا النوع من مرض السويداء ، أى فى مرض ينشأ عن بواعث نفسية ، ما يمكن أن يفيـــد فيه هو علاج نفسى أيضاً . اعملى ما فى وسعك لإرضاء ابنتك ، قدمى لها كل ما تطلب من ألوان التدليل والنسلية والامتيازات .

سابين : لا أستطيع ، على كل حال ، أن أنتزع القمر لأقدمه لها ! هيا ، أخبرنى بالحقيقة كاملة . . إن حالتها خطيرة حقاً . . أليس كذلك ؟

الطبيب : [بتراخ] كلا ! . . كلا . لكننى أقصر فى واجبى إذا تركتك تغمضين جفنك فى اطمئنان .

سابين : وأنى لى أن أنام ! إننى لم أعد أعيش : .

لست الطبيب ولكننى الأم ! إذا ما كان الأمر متعلقاً بأبنائنا ، فنحن نراهم وكأننا فقدناهم . وتشعر الأم فى نفس الحين أن ذلك مستحيل ، فهى تحس أنها تخلق لتضع ، فى تابوت ، ما أنجبت فى هذه الدنيا . وهى تقول لنفسها : : إن عليها أولا أن تزايل هى هـذا العالم : : ما دامت هى الأم !

الطبيب : هدئى من روعك ! أرجو أن نوفق فى إصلاح ما حدث من شر : استمعى الآن إلى توصية ثانية : : إذا أبدت مدام فونتنيه أية رغبة فى الانضمام إلى الرحلة ، فارفضى أنت سفرها رفضاً باتاً .

سابين : آه ! أهى ؟ : : ولم ؟

الطبيب : لقد فحصتها منذ فترة قصيرة مرة أخرى : إن قلبها لم يعد فى الحالة التى تمكنه من أن يقوم بالدور الذى تتطلبه

قلة الأوكسيجين على ارتفاع ألف وثمانمائة متر . . فعلى هـــذا الارتفاع يتضاعف عمل القلب أربع مرات ليمد الناس بنصيبهم العادى ، وهذا خطر فى الحالة التى لم يعد فيها للشرايين المرونة الكافية . ولست أقول هذا الكلام لأبث القلق فى نفسك بخصوص مدام فونتنيه ، إنها تستطيع أن تعيش زمناً طويلا فى باريس فى جو السهول ، أما تعريضها إلى بذل مجهود مضن فى التنفس فى المناطق المرتفعة فهو بمثابة طعنها بسكين .

سابين : إنه لأمر تهمنى معرفته !

الطبيب : وثمة كلمة أخرى كذلك . . إن المصابين بأمراض القلب شديدو التأثر . فإذا سألت مدام فونتنيه عن أسباب . . فلا تخبرها بالسبب الحقيقى .

سابين : فهمت .

الطبيب : إلى اللقاء فى شهر سبتمبر إذن . إلا إذا

. سارت الأمور على خير وجه ، بحيث لا تستدعونني .

[يخرج]

المشهد التاسع

[سابين . . مدام فونتنيه مقبلة من غرفتها]

سابين : أنت !

مدام فونتينيه : نعم ! أنا ! هل وجودى فى غرفة استقبالى يعتبر أمراً خارقاً ؟ أكنتم تعتقدون أنكم ألقيتم بى إلى الكلاب ؟ . . ولكننى جئت يا بنيتى لـكى ننسى ما تبادلناه فيما مضى من كلام قاسى . إننى لحزينة غاية الحزن لما جلبته مارى جان على نفسها من مرض ، لأن عقلها الصغير لا يسيطر على عقلى الهرم . . حقاً ، إننى لست مسئولة عما أصابها من هستيريا إذ رفضت أن

أتكفل بأخطاء عزيزها ديديه ، فلندع هـذا جانباً . . . إن ما أتعجل إخبارك به . . هو أنك كنت على حق فى اعتمادك علىّ فى دفع جميع نفقات العلاج ، ونفقات السـفر والإقامة كذلك .

سابين : أشكرك .

مدام فونتنيه : تعبسين فى وجهى ؟ هل تكنين لى حقداً شديداً ؟ هل تعيبين علىّ ! . .

سابين : ليس ذلك من حق .

مدام فونتنيه : اعلمى مع ذلك أنه ما من أحد يحبك سـواى .

سابين : آه ! إن لم يكن لدى حب مارى چان الذى يساند قلبى ، لما شعرت أن هناك من يحبنى .

مدام فونتنيه : ثقى بما أوتيت من بصيرة : ليس لى أحد سواك ، وأنت لا ترين أمامك

إلا ابنتك ، وابنتك لا تفكر إلا فى زوجها . إن ما تحبه فيك حقاً هو القضية المشتركة التى جمعت بينك وبين الرجل الذى تحب ضدى . احذرى يوماً لا تكونين فيه على وفاق مع زوجها . عنـدئذ ستعرفين بدورك ما هو مركزك كأم لاغير . ولكننى مخطئة فى ترديد مرارة نفسى . . لنتكلم فى المسائل العملية . أتكذبنا نحن الاثنين ، الحقيبة الكبيرة ؟

سابين : لا يمكنك أن تأتى معنا يا أمى . . لن تقومى برحلة لا غناء فيها . ولن تقلبى نظامك المعتاد ، لقضاء بضعة أسابيع . .

مدام فونتنيه : ليس ثمة ما يقلب نظامى المعتاد ، أكثر من الافتراق عنك .

سابين : إنه لمن الحمق أن نفرض عليك القيام برحلة طويلة مثل هـذه فى السكة الحديدية ، فطبعك وسنك لا يسمحان

لك أن تتجولى فى جبال الألب ،
أو تنزلى بالفنادق حسبما تمليه المصادفة .

مدام فونتنية : إذا كنت لم أعد شابة حقا ، وإذا كنت بين الحين والحين أتلقى إنذارات بأن نهايتى ليست بالبعيدة ، فلن تكون هذه بواعث تدعوك لأن تعهدى بى إلى رعاية خادمة ، طيلة ثلاثة أشهر . وما دام لم يبق لى من العمر وقت طويل أراكى فيه . . فإننى أتعلق بخطواتك . . ولن تذهبى إلى أى مكان دون أن أتبعك إليه .

سابين : تضطرينى يا أماه إلى أن أقول لك إننى لا أريدك .

مدام فونتنيه : آه ! هراء !

سابين : افهمينى جيداً ! إن مهمتى هى أن أكرس كل لحظاتى وكل أفكارى لشـــفاء مارى جان ، وأنا فى حاجة إلى أن أكون

لها كلية ، وألا يصرفنى عنها أى اعتبار آخر . ثم ، إذا لم يلائم الجو ابنتى ، وإذا اضطررنا إلى العودة بها مسرعين أو الانتقال بها من مكان إلى مكان ، فلن أكون قادرة على أن أروح وأغدو بك هكذا ، ولا أن أكفل لك ما يجب علىّ نحوك من عناية وراحة .

مدام فونتنيه : مجمل القول إنك تعديننى حملا مزعجاً !

سابين : تستائين منى . . هذا ظلم . إن الذى يحدونى قبل كل شىء فيما أقول لك ، هو فكرة راحتك ومصلحتك .

مدام فونتنيه : دعينا من هذا ! إنك تعاقبيننى وتبعديننى عن حضرتك . لقد أعددت الأمور بحيث لا يكون هناك إلا أنت وابنتك وزوج ابنتك . . ثلاث رؤوس فى قلنسوة واحدة بعيداً عن العجوز التى تلعنونها حين لا تدفع شيئاً ، والتى لا تتحملون مضايقاتها حين تدفع ! إذن فالعناية التى

أحرم منها ، علىّ أن أوفرها لنفسى :
وما دمت أمسك برباط كيس النقود ،
فقد قررت ألا أترك وحيدة . فابنتك لها
زوجها ، ولا يمكنه فى الوقت الحاضر أن
يعمل عملا أفضل من أن يبذل جهده فى
أن يعيد لها صحتها ويسرى عنها ، وسنهيئ
لها راهبة تعينها إذا راقك ذلك . ولن
يتنافى مع الإنسانية فى شىء أن نسمح
لامرأة شابة فى الحادية والعشرين أفرطت
فى استثارة أعصابها ، أن نسمح لها
بالسفر على هذا النحو . لكنك إن رحلت
فسأرحل معك . أما إذا أبقيت هنا
فلن تذهبى .

سابين : أوه ! لا تستغلى فقرى فى الضغط على !

المشهد العاشر

سابين . . مدام فونتنيه . . ديديه

ديديه : [حاملا بعض الوسائد] سيرتبون حجرة

مارى چان ، وسأعد لها مكاناً هنا .

سابين : هل نهضت ؟ ستحضر إلى هنا ؟

ديديه : بعد لحظة .

مدام فونتنيه : ابحثى الأمر معها ، وحددى معها إذا ما كنت تؤثرين استصحابى أم أن أستبقيك هنا .

سابين : أماه ! أرجوك !

مدام فونتنيه : لن أقوم بالنفقات اللازمة إلا فى هذه الحالة أو تلك . .

سابين : [لنفسها] سأضطر إلى البقاء إذن .

[تخرج مدام فونتنيه]

المشهد الحادى عشر

سابين . . ديديه . . مارى چان

ديديه : [متجهاً نحو زوجته] انتظرينى ! . . . إنك فى غاية الضعف .

ماری چان : [إلى أمها] أماه! هل أحضرت المائة ألف فرنك لديديه ؟

سابين : اجلسي هنا ! تمددي !

ماری چان : هل معك المائة ألف فرنك ؟

سابين : لقد قلت لك فقط إنني وعدت بالحصول على المبلغ .

ماری چان : هل وعدك السيد ستانچي ؟

سابين : بلا ريب ! لكن المال لم يصل بعد .

ماری چان : [في حركة يائسة] أوه !

سابين : ليس معنى ذلك أنه لن يصل . . هـذا مجرد تأخير .

ماری چان : لقد حان وقت اجتماع دائنينا ، كيف سيعاملون هذا التعس إذا لم يجئ فم بشيء ؟

ديديه : معذرة ! إذا أنا حملت إليهم اليوم خبر التسوية القريبة جداً فقد يكفيهم هذا ليوقعوا صك خلاصي . وما يضيرهم من هذا ،

ما دام الاتفاق سيعتبر باطلا ويمزق إذا لم أنفذه فى التاريخ الذى نتفق عليه ؟

سابين : [لمارى جان] أتسمعين ! إن زوجك لا يفقد صوابه مثلك . وهو أكثر منك دراية بأعماله الخاصة .

ديديه : ولكننى مع هذا فى حاجة إلى أن تحددى لى بعض التحديد ، البواعث التى تدعوك لأن تعدينى بالمال . .

سابين : طبعاً . . طبعاً .

مارى جان : هل الخطاب الذى تلقيته من السيد ستانچى من السرية بحيث لا تستطيعين أن تطلعى ديديه على مضمونه .

سابين : لم أتلق سوى برقية تركتها لدى هؤلاء السادة فى البنك ، حيث أتاحت لى أن أقدم نفسى . . . ما هـــذا ! لا تفتحى عينيك هكذا ! إنه بنك يعرفه الجميع ، إنه بنك الكريدى ليونيه [إلى ديديه]

إنك تعلم جيداً أننى أمضيت وقتاً طويلا
خارج البيت هذا الصباح [إلى مارى جان]
قبعتى وقفازى لا يزالان هنا ! ما الذى
دعانى إلى الخروج وأنت مريضة .
وعودة الطبيب وشيكة . إذا لم يكن هذا
لإنهاء الأمر الذى يستحوذ على تفكيرك !
أقسم لك ! إننى لما خرجت ، كان لدى
السبب الذى يحدونى إلى الإيمان بأننى سأعود
حاملة المال الذى وعدتك ! أجل ! أقسم
بحياتك على هذا . لقد أتيت إلى البرقية
أن حساباً قد فتح لى . لكن لظروف
معاكسة ، لم يتسلم البنك بعد إخطاراً
من مراسله . وعلى كل حال فهم يعرفون
هناك اسم السيد ستانجنى معرفة جيدة .
والدليل على ذلك أنهم أخبرونى بأن جميع
أعماله فى أوروبا تجرى عن طريقهم .
وأنه كثيراً ما يحدث أن تصل منه برقية
قبل الأوان بوقت ما . وقد تركت عنوانى ..

وسيخطرونني عندما تنتظم الأمور .
لا يمكنني أن أسرد عليكما شيئاً أكثر من
هذا ! ماذا تطلبان فوق هذا ؟

ديديه : أوه ! إنني أصرح لك بأنني راض تماما .
فأنت تعرفين أننا لا نضـــع كلمتك
موضع الشك .

سابين : [إلى ديديه] إذن فالمســـافرا وأنتما
مطمئنان . . أما أنا فسأتتبع سير الأمور
خطوة خطوة [إلى مارى جان] وسأحدثك
بذلك كل يوم فى خطاباتى . .

مارى چان : كيف ؟ ألا تذهبين معى ؟

سابين : جدتك تحتجزنى معها .

مارى چان : لا تفعلى هذا معى ! لا تحرمينى من متعة
وجودك بقربى ! تعلمين جيداً أننى أعود
ثانية بنتك الصغيرة ، كلما أصابنى
أتفه ألم !

سابين : لو كنت حرة لكانت مصاحبتك أجمل متعة لى . لكن أمى تفرض على أن أكون معها .

مارى چان : ولم لا نصحبها معنا ؟

سابين : أوه ! كلا ! هذا مستحيل !

مارى چان : وإنه لأكثر استحالة كذلك أن تفترق عنى ؟ إليك ياأمى العزيزة المسى يَدَىّ : أترين كيف يسيل منهما العرق لمجرد استيائى لفكرة ابتعادك عنى .

سابين : بحق السماء يامارى چان لا تكونى شديدة الحساسية إلى هذا الحد . وإلا أفقدتنى صوابى .

مارى چان : فلتصحبنا جدتى . . هذا هو السبيل إلى إصلاح كل شىء .

سابين : كلا ! كلا ! لا تصرى على ذلك .

ديديه : [إلى سابين] إن ساعة اجتماعى تستحثنى . .

فأى أجل أستطيع أن أحدد موعدا للدائنين ؟ هل أستطيع أن أقول لهم بعد شهر ؟

سابين : أوه ! ليس بهذه السرعة ! امنح نفسك فرصة أوسع ! لا أريد أن تشغل مسألة السداد بال ابنتى أثناء علاجها .

ديديه : ليكن ! .. سأطلب ثلاثة أشهر . وأنت ؟ أليس كذلك ؟ ستتكفلين بأن أكون حينئذ قادرا على السداد ؟

سابين : طبعا ! .. بالتأكيد !

ديديه : وإلا تعرضت لأن أعامل معاملة متهرب ولأن يلاحقنى الدائنون بلا رحمة وربما سدوا فى وجهى إلى الأبد .. طريق رد اعتبارى .

سابين : [مضطربة] آه ؟

مارى جان : أوه ! الآن وقد اعتبرت أن ديديه قد

أفلت من مخالب هؤلاء الأشقياء . . فإننى
سأموت إذا حدث ووقع بين مخالبهم
مرة ثانية !

سابين : [بقلق شديد] أرجوك ألا تتفوهى بكلمات
من هذا القبيل .

ديديه : إذن فالارتباط الذى سأرتبط به أمر ذو
أهمية بالغة بالنسبة إلى .. فإذا كان لديك
أدنى شك فلا تدعينى أرتبط ارتباطا تاما .

[صمت من سابين]

مارى جان : [تعتدل . فى ضيق شديد] أمى . . أنت
لا تجيبين !

سابين : أوه ! بلى . . لا تغضبى كل هذا
الغضب . إنها لهجة ديديه التى
أربكتنى قليلا .

مارى جان : [وقد عاودها الإعياء] آه !

سابين : [بجنون] هيا بحق الله لا تعودى إلى

الإغماء ! أين . . أين . . أين الأملاح ؟
تنفسى يا بنيتى ! . . تنفسى [إلى ديديه]
تأمل كيف يعاودها شحوب الأموات
لأمر تافه ! يخيل إلى أننى أراها ميتة !
آه ! كلا ! لن تموتى ! فلتفن الأرض
جميعها قبل أن أدعك تموتين ! مارى
جان ! أتسمعينى ؟ لقد فتحت عينيها . .
بنيتى العزيزة . . اسمعى ما أقول لديديه
[إلى ديديه] اذهب يا عزيزى ، ولتنفذ
بحسارة الخطوة التى ستعيد الحياة إلى
هذا الجسم الصغير البائس . إننى آخذ
على عاتقى كل المسئوليات المترتبة على
الاتفاق الذى ستوقعه ، وإننى أقسم لك
إننى سأفعل ما فى طاقة بشر أن يفعله
للوفاء بعهدى .

[يخرج ديديه]

المشهد الثانى عشر

سابين . . مارى چان . . مدام فونتنيه الخ

مدام فونتنيه : [حائدة عن عرفتها] وبعد ؟ ما موقفك بين أمك وابنتك ؟ هل سأرحل معكم ؟

سابين : [تجيب بحركة من رأسها أكثر من صوتها] نعم .

الفصل الرابع

[شرفة أمام دار صغيرة فى قمة مالوجا . . يشاهد عن بعد فندق « پالاس » . البحيرة ، ووادى الإن وجباله . . . مقاعد . . . مقعد . . . حديقة للاستظلال] .

المشهد الأول

الخادمة . . ستانجى . . ثم مدام فونتنيه

[فى لحظة التى يدخل فيه ستانجى ترفع الخادمة صينية عن منضدة صغيرة

ستانجى : أفى هذه الدار تقيم مدام ريشيل ؟

الخادمة : نعم يا سيدى . .

ستانجى : [وقد لمح مدام فونتنيه عائدة من نزهتها] ألا تعرفيننى يا سيدتى ؟

مدام فونتنيه : السيد ستانجى ! . . .

[دخلت الخادم إلى الدار]

ستانجى : إننى أقيم فى فندق جالاس منذ فترة . . وبالأمس عنـــد المغيب مرت عربتكم المتنقلة . فخيل إلى أنك وصلت مع أسرتك . وقد تأكدت من ذلك هـــذا المساء ، بأن ذهبت أستعلم عن الأسماء التى سجلت بمكتب الفندق الذى يتبعه هذه الدار . وكنت هذا الصباح لا أزال أتساءل عما إذا كان من واجبى أن أمثل من جديد أمامك وأمام أسرتك . . هل سيكون لظهورى الأثر المزعج الذى يسببه شبح عائد . كنت لا أزال أتســاءل عندما تسلمت من البريد رسالة طويلة هامة من السيدة كريمتك ! . .

مدام فونتنيه : رسالة من ابنتى ؟ . -

ستانجى : هذه الرسالة التى بعثت إلىّ بها منذ أسابيع . لم تصل إلى الولايات المتحدة إلا بعد مغادرتى لها . وقد طوّفت طويلا فى أثرى . وقد علمت فجأة من محتويات الرسالة بأمر المصائب المالية التى أحاطت بكم .

مدام فونتنيه : لم أكن أعرف لأن سابين كتبت إليك بهذا الصدد ، ويرجع ذلك دون ريب ، إلى أن هذه المصائب قد أقامت سمتا مطبقا بينى وبينها .

ستانجى : فلما قرأت منذ قليل أن مدام ريفيل تشرفنى باعتمادها على معاونتى . . فإننى أبادر لأكون عند حسن ظنها . .

مدام فونتنيه : ستجد راحة كبيرة فى التحدث إليك . . وقد كنت لها فى ذلك العهد البعيد صديقا عزيزا وحكيما . . فالحالة تبدو فى الواقع وكأن مرض مارى جان العصبى الذى

جئنا نعالجه هنا ، قد انتقل . إلى حد ما ،
إلى سابين . كنت أرقبها هذا الصباح
وهى تجوب بنظراتها فى هذا المشهد
الطبيعى بعينين شاردتين تماما . ومع ذلك
فما أجمله . . إنه جمال يبعث القوة فى
النفس . فمنذ أخذت أستنشق هذا الهواء
النقى المنعش . . يبدو لى أن حيويتى قد
ازدادت . فأنا أشعر بسببه بنشوة تبلغ
الدوار [تتأرجح قليلا فى وقفتها] لا شك
أننى قد أبعـــدت كثيرا فى نزهتى
حتى آخر البحيرة . . إننى داخـــلة
لأستريح ، وسأرسل لك ابنتى :

[تدخل م . فونتيه من باب الدار]

المشهد الثانى

[ستنجى . . سابين خارجة من الدار من باب آخر]

سابين : أنت هنا ؟ إننى أسأل نفسى هل أنا يقظانة ؟
أم أن ظهورك حلقة من حلم أسير فيه ؟ .

ستانجى : [مرتبكا] إننى أنا بالفعل . وإنى لأشاركك انفعالك . لقد طال الوقت لتتهمينى بإهمال شنيع لندائك إلى ، فاسمحى لى أولا أن أبعد التهمة عن نفسى .

سابين : لقد سمعت تفسيرك

ستانجى : يبقى علىَّ إذن أن أقول لك إننى رهن أمرك بشأن المساهمة التى تنشدينها منى .

سابين : ما أكرم ذلك منك ! .

ستانجى : لا تشكرينى . فأنا لم أنل حظ الشعور بضيق مالى لأجيب مطالبك . فتحت يدى مال كثير ليس له وريث . وفضلا عن ذلك فمعرفتى بك تؤكد لى أن قرضى لن يتعرض لمجازفة ما أكرمها على نفسى لو حدثت . وهى مجازفة عدم رده إلى .

سابين : آه ! حقا إنك الكرم بعينه ! صدقنى إن دموع ابنتى وإلحاحها هما اللذان دفعانى إلى أن أتوجه إليك . . ألم أصبح غريبة عليك ؟ .

ستانجى : لقد كنا أصـــدقاء كأوفى ما يكون الأصدقاء ! .

سابين : آه ! هذا ! نعم ! أترى جليا يا ستانجى أن ثمة خيطا خفيا ربطنى دائما بك . ذلك أننى فى يأس خوفا على مارى چان من أن تهلك بسبب الكارثة التى حلت بها وبزوجها ، لم أتردد فى أن أؤكد لها . . ولزوجها ، أنك قد أجبت على خطابى جوابا مرضيا . . يجب ألا تنتزعهما من هذه الخدعة ! كان حقا إذن أنك مقبل نحوى ، عندما تنبأت وأعلنت ذلك ، وأنا أهيم فى ظلمات نفسى الفظيعة ، وإذن لم يكن ممكنا ألا يحدث غير ما حدث . لقد أنقذت ابنتى بفضل ما وهبنى ودك لى . وليس هذا كل ما فى الأمر ! . . لقد وصلت فى الوقت المناسب . آه ! إنك لا تدرك مدى الخير الذى تصنعه من أجلى ! وليس من أحد يقدره سواى .

ستانجى : ماذا تم فى المتاعب التى أطلعتنى عليها حين كتبت إلى من وقت طويل فى عبارة عاجلة ؟

سابين : لقد وقعت الكارثة . . لكننا سنتجنب عواقبها بمعونتك . غير أنى أفضل أن تتحدث مع زوج ابنتى بشأن هذه الأرقام وهذه النقود . فإن موضوعات مثل هذه لتؤلمنى أشد الألم إذا تناولناها نحن الاثنين .

ستانجى : مجمل القول إن زوج ابنتك لا عمل له الآن ؟

سابين : نعم للأسف ! لقد وقع تنازله عن جميع حقوقه فى مصنعه .

ستانجى : هل يجب علينا أن نجد له عملا ؟

سابين : ما كنت لأستطيع أن أطلب إليك كل هذا . ما أشد طيبتك . إذ تسبق فتريد مداواة أسباب المتاعب المقبلة .

ستانجى : يسعدنى أن أهيئ لك كل ما أستطيع من أسباب الطمأنينة .

سابين : آه ! إنى لأرى فيك الآن ستانجى الذى عرفته فى أسعد ما عشت من أيام . . فأنت دائما صديق ستانجى .

ستانجى : لقد كتبت لى تقولين إن السيد ديديه ماراڤون رجل مهذب للغاية ومهندس ممتاز . لم تنقصه سوى الفرصة المواتية .

سابين : نعم : هذا هو رأيى فيه بكل إخلاص . فهلا استطعت بنصائحك وخبراتك أن تنير له السبيل ! وعلى كل حال فقد صادفته بمنزلى أيام كان لا يزال أعزب ، وكان يتناول العشاء بمنزلنا ليلة رحيلك .

ستانجى : فعلا . وما عليك الآن إلا أن تعيدى الصلة بيننا .

سابين : سأفعل ذلك حالا . إذ يتحتم على أن آخذ أمى من هنا . ولن ألبث أن أكون بعيدة عن هذا المكان فى صباح الغد .

ستانجى : أهى قسوة الجو التى تقصيك عن هنا ؟

سابين : نعم .

ستانجى : حقا . . هذه التقلبات فى الريح والحرارة دون ٣٠° درجة فى الشمس وعشر فى الظل يهبط الترمومتر ليلا إلى ما تحت الصفر . أعرف أن هذا أمر يتهيبه المرء عند حضوره إلى هنا ، وخاصة إذا كان مسئولا عن شخص متقدم فى السن مثل مدام فونتنيه .

سابين : إن هربى لن يلبث أن يحرمنى منك فى ظروف أحتاج فيها إلى زمن لا ينتهى لأعبر لك عن عرفانى بالجميل . لقد انتزعت منى فيما مضى اعترافى بمكانتك فى حياتى ! وسوف أرتعد فرقاً إن اجترأت على الاعتراف لك مرة أخرى .

ستانجى : [متألما] سابين !

سابين : نعم ، لقد أسأت إليك ، ولعلنى قد أتلفت جانباً كاملا من حياتك ولكنك تظهر أمامى فجأة فى دور الرجل العظيم الذى يفيض بالغفران ، حتى إنه ليبدو لى

أن السماء هى التى ترسلك لتضع حدا
لأخطائى وتعاستى . أليست هذه المقابلة
بشيرا بأننى ما زلت أستطيع أن أنال
السعادة ، بل وربما أمنحها ؟ هل ستعود
إلى باريس ؟ هل سيكون فى استطاعتك
أن تعود فتسلك طريق بيتى حيث لم
تكف صورتك قط عن أن تخطر أمام
ناظرى ؟

ستانجى : لقد أتيت إلى هنا من أجل . . إن الذى
يستبقينى هنا .. هو صحة زوجتى ..

سابين : [فى منتهى الجزع] زوجتك ! .. أوه !

ستانجى : هل تصورت أننى سأعيش أبدا فى
وحدة مخلصة ؟

سابين : نعم .. لا .. لست أدرى .

ستانجى : لقد تزوجت فى لويزيانا بعد افتراقنا
بسنة من قريبة لى كانت هناك .
إنها سيدة طيبة بسيطة ، جاهلة
متوحشة ! لقد كان يخيل إلى أننى لن

أتزحزح عن هذه الأرض التى لذت بها
والتى عدت إليها ، استغل قواى كرجل
فقد مثله الأعلى ، وانقاد لغريزة
العمل انقياداً . . كرجل يحرث
الأرض ، ويحفر ، وتكون له زوجة . .
ويخلف ذرية . . ولكننى لم أنجح فى
أن أصبح الحيوان الذى تخيلت . لقد
ولد لى ابن منـــذ أكثر من عامين .
ومات ولدى منذ ثلاثة شهور . اختنق
وهو يمد لى ذراعيه الصغيرتين ، وإننى
لا أزال أحس فى هذه الحركة البريئة
المتضرعة الواثقة . . ندماً لعجزى عن
تحقيقها . ومنذ ذلك الحين وزوجتى
ترفض أن تعود لتقيم تحت هـــذا
السقف الملعون . وأنا أيضاً لم أعد
أحتمل العيش هناك . فهاجرنا . .
ولقد حضرت قبلى فى نفس المكان
احتضار أمى ، ثم احتضار أبى . .

وكنت مع ذلك أعاود أعمالى المعتادة ، حالما أرجع من المقبرة بعـــد دفن الجثة . لقد كنت أحبهما كليهما حباً شـــديداً كما يحب المخلصون آباءهم وأمهاتهم ، كما تحبين أنت أمك .

سابين : نعم . .

ستانجى : فكيف يحطمنى هكذا ويقنينى اختفاء هذا المخلوق الصغير ، الذى كان لا يزال يتمتم ، والذى لم يكن ممكنا أن تنشأ لى معه ذكريات مشتركة ولا أفكار متبادلة . والذى لم يكن يربطنى به إلا الشعور بأنه جاء منى ؟ يالالشقاء ! إننا لا نكاد نلتفت خلف ظهرنا إذن حتى يحصد الموت هؤلاء الذين وهبونا الحياة . ولكن عندما يأتى الموت فيأخذ ، قبل أن يأخذنا ، ابننا ، أى عملنا نحن . والخليقة التى نرى أنفسنا فيها ، فعندئذ فقط لا تجد أنانيتنا أى عزاء .

سابين : إننى أرثى لك يا صديقى ، بكل قلبى كأم ، وبكل ما فى نفسى من حنان امرأة ، وبكل ما أحسست به من حب ! .

ستانجى : أما كان القدر يصبح أرحم بنا لو أتاح لى أن أرد بالموافقة على خطابك ، بخطاب يأتيك من بعيد جداً ، أو لو أعفانى من هذا اللقاء الذى لا يحق لى فيه إخفاء مشاعرى ؟ .

سابين : كلا ! لا تأسف على هذه اللحظة ، فلطالما دفعتنى أحزانى منذ أربع سنوات إلى التفكير فى أننى سأفارق هذا العالم دون أن أراك . لقد رأيتك مرة أخيرة . وهذا أكثر مما أستحق إذ جئت هنا . [يظهر ديدييه على عتبة باب الدار] ها هو ذا زوج ابنتى وسأتركك معه بينما أذهب أنا لأضمن مكانا فى المواصلات لسفرنا فى يوم قريب .

المشهد الثالث

سابين . . ستانجى . . ديدييه

استانجى : [متجها نحو ديدييه] إننا نعرف بعضنا البعض من زمن قديم .

ديدييه : آه يا سيدى ! كم من مرة منذ أيام ، كنت أنا وماري چان نبارك فيها اسمك ! إنني أهنئ نفسي لأنني أستطيع أن أعبر لك عن شكرى بنفسي .

ستانجى : لندع الحديث فى هذا . لقد دخل فى ذمة التاريخ [إلى سابين] أليس كذلك ؟

سابين : [وهى تصافحه] شكرا .

[تبتعد فى اتجاه الفندق الكبير]

المشهد الرابع

ستانجى . . . ديدييه

ستانجى : هلا كان من الأفضل أن تتحدث عن مشروعاتك للمستقبل ؟

ديديبه : ليس لدى بعد مشروعات محددة . فلم تتح لى فرصة التفكير فيها [تخرج مارى چان من الدار وعلى ذراعها شال وبيدها كتاب] أتسمح بأن تنضم زوجى إلى حديثنا ؟

ستانجى : بالتأكيد

المشهد الخامس

ستانجى : . ديديبه : . مارى چان

مارى چان : [باندفاع] السيد ستانجى ! لقد لحقت بنا ! أوه ! أود لو أعرف كيف أعبر لك ! . .

ستانجى : حسناً يا بنيتى حسناً ! طيبى نفساً : : . واستريحى ! لقد تعلمت كيف يعالج المرضى من أمثالك : : : وأنا أعالج زوجتى . .

مارى چان : أنت متزوج : . آه !

ديديبه : [إلى مارى چان] السيد ستانجى كان جد

لطيف بحيث جعل يهتم منذ الآن بما سيمكننى أن أباشره من مشروعات جديدة .

ستانجى : تنقصنى الدراية بما قد يعرض لك من ظروف فى باريس أو فى فرنسا ، إننى لا أفهم إلا أعمال بلدى . . هل لك إلمام باللغة الإنجليزية ؟

مارى چان : إنه يتكلمها بطلاقة . .

ستانجى : [إلى ديديه] لقد خطرت لى منذ حين فكرة ما ، غير أننى بعد مناقشتها أحس بالتردد وأنا أعرضها عليك . كما أننى لا أرى أن أرسل هذه السيدة الشابة الضعيفة لتتألم فى المنطقة الاستوائية ، فهل أستطيع أن أعرض عليك محاولة ، تباعد بينك وبينها بعض الوقت .

مارى چان : إذا كان لديك مركز حسن لديديه ، إذا كانت لديك وسيلة لتعيد إليه الثقة

بعمله والإيمان بالنجاح ، وكل هـذا الحماس المتشامخ الذى كان مصدر سعادتى ، آه ! يا سيدى تكلم ولا تتردد .

ستانجى : إذن ، إليكما . . . لست أدرى متى ستعاودنى الرغبة فى أن أعود إلى مركز مشروعاتى . . وهى منظمة بحيث تسير حالياً بدونى ، ويقوم بالعمل ملاحظون ومديرون ووكيل أعمال . غير أنى أرى أنه ينقصنى هناك قبل كل شىء رجل ينطوى على أشد أنواع الأمانة تيقظاً ، بالإضافة إلى المقدرة الفنية . . والتوصية التى أوصتنى بها مدام ريشيل . . جعلتنى أفكر فيك .

ديديه : سيدى ، إننى أعترف من أعماق قلبى بكرم نواياك . . وأعرف أنه يجب على كذلك أن أتشبث بكل فرصة لاستعادة مكانتى . لكن عندما يستدعى الأمر أن

أفارق زوجتى . . فإنك تفهم وتعذر . .

ستانبى : حتى إذا كانت الثروة هى التى تسعى إليك لتحصل عليها فى فترة قصيرة إلى حد ما ، أفلا يمكنك أنت وهى أن تقوما بتضحية مماثلة لتضحيات أسر البحارة ؟ ومهما يكن من شىء فبعد الستة الشهور الأولى ، سيكون من حقك أن تعود فى أجازة وأن تقطع هكذا ترملك المؤقت ، وفى العام القادم ، سأذهب دون شك ، لأحل محلك فى مركزك . . ثم بعد ذلك سنرى . . . سوف يكون فى مقدور زوجتك العزيزة من غير شك ، أن تبدأ دون أن يلحق بها أى ضرر ، فى زيارتك على الضفة الأخرى من المحيط فى زيارات قصيرة أو طويلة . . أما عن التقدير المادى لمشاركتك ومعاونتك لى ، فسيكون أولا عن طريق مرتب ثابت محترم جداً ، وفوائد طيبة على عمليات

كبيرة . وأنا أضمن لكما . . أنكما بالمثابرة ستصبحان خلال بضع سنوات ، مستقلين ، غنيين ، وسوف تعرفان كلاكما حينئذ أن النتيجة تساوى تضحية التغلب على النفس .

ديديه : مارى چان ، على أن أصلح الأمور ، وأن أستعيد مركزى ، وأكفر عن خطئى .

مارى چان : [إلى ديديه] أقبل ! [إلى ستانجى] أنا أقبل نيابة عنه . . لن نوفيك حقك أبداً ! اتفقنا ، أليس كذلك ؟ إنك تعطينا وعدك ؟

ستانجى : نعم ، يا صديقتى الصغيرة .

ديديه : متى تحتاج منى أن أكون هناك ؟

ستانجى : خير البر عاجله . سابين لك ما يجب عليك عمله على الفور . . فلو استطعت أن تبحر فى نهاية هذا الشهر ؟ .

ديديه : مارى چان ! أبتعد عنك قبل شفائك التام !

مارى چان : لا تقلق من أجلى . اتخذ مع السيد ستانجى كل ما يلزم من استعدادات .

ستانجى : [إلى ديديه] علينا أن نتدارس كذلك الوسيلة التى ستقطع بها صلتك بالماضى . لكن يجب علينا ألا نتعب هذه الرأس الجميلة بمثل هذه الأمور . فلندعها تعاود قراءتها ، وإذا كان هذا يوافقك ، فلنمش قليـــلا قبل أن يدق جرس الطعام .

ديديه : كما تريد .

[يطبع قبلة على جبين مارى چان]

مارى چان : اذهب [إلى ستانجى] إلى لقاء قريب .

[يخرج ستانجى وديديه]

المشهد السادس

ماری جان . . . سابين

سابين : [عائدة من فندق بالاس] كيف خرجت ؟ . . ألا تشعرين بالبرد ؟ إن مظهرك لغريب ، تبتسمين ، وفى نفس الحين ، جبينك جاد مجعد .

ماری جان : إن السيد استانجى ، بكرمه المعهود ، قد تكفل بأن يهيئ مركزا مناسبا لديديه ، لقد أخذ على نفسه عهدا بأن يجعله غنيا ، بشرط أن يذهب زوجى ليحل محله فى أمريكا خلال ثمانية أيام منذ اليوم .

سابين : آه ! آه !

ماری جان : ألا توافقين على أن هذا العرض لم يكن من المستطاع رفضه ؟

سابين : بالتأكيد ! إنها فرصة ما كنا نرجو مثلها . كان ديديه سيلقى صعوبات

كبيرة ليحصـــل على عمل هام فى
المناطق المحيطة بنا . . فى حين أنه
سيجنى ربحاً كبيراً وسيرضى الجميع
عنه إذ يفرض على نفسه الهجرة من
وطنه لفترة من الزمن . ولكن ،
أنت يا عزيزتى ، هل أنت من القوة
بحيث تحتملين هذا الفراق ؟

ماری چان : أنا ؟ لن أفترق عن ديديه ؟

سابين : ماذا تقولين ؟

ماری چان : أقول إننى سأصحب زوجى .

سابين : إنك تهذين . كيف ؟ إنك لم تدخلى
بعد فى دور النقاهة ، وتريدين أن
تسافرى إلى ما وراء جزر الأنتيل ،
إلى شواطئ تنخر فيها أشعة شمس غير
مألوفة أقوى الرجال بنية ! دعينا من
هذا ! أتدركين ما تقولين ؟

ماری چان : تعلمين تماماً أن ما أمرضنى هو أن أرى

ديديه فى كفاح مع الشدائد وقد قهره القنوط . وإننى سأشـــفى حالما أراه راضياً عن نفسه يقوم بالمشروعات ، ويعيش فى رغد ؛ بل إن صحتى تحسنت لمجرد أننى تصورته كذلك ، بل لقد أصبحت فى صحة جيدة !

سابين : وأنا ، وسط هذه الترتيبات ، أنا ، ماذا تصنعين بى ؟ . .

مارى چان : لا يمكنك أن تجرجرى جدتى وراءنا إلى هذه البلاد النائية ، ولا يمكنك كذلك أن تتركيها هنا . .

سابين : وهكذا ، رسمت خطتك ، قبلت أن تسافرى بعد أســبوع لتعيشى على بعد ألف وخمسمائة فرسخ منى : .

مارى چان : وهل أحتمل أن يقوم بينى وبين زوجى ألف وخمسمائة فرسخ ؟

سابين : لست مضطرة لا أنت ولا هو إلى مغادرة باريس ، إن الشقاء لا يطبق على عنقيكما

فيها . سيبحث ديدييه عن عمل آخر .

مارى چان : لقد قلت بنفسك . إنه لن يجد حولنا إلا حياة الضنك والبطالة . وأنت لا تقبلين أن نحكم على أنفسنا بالعيش الثانه عندما يتفتح بل ويشرق أمام أعيننا ، مستقبل قد يكون استثنائياً لا نظير له . إننا على عتبة الشباب وكانا شبية متفتحة تماماً . : والمكان الذى يعرضونه علينا ، هو بلاد الثروة . . بلاد الملايين !

سابين : يا للحماس ! ويا للمجد ! مارى چان ! إنك تتسلين بإثارة جنونى . . . أليس كذلك ؟ إنك تستسلمين للعبة قاسية !

مارى چان : بل إننى لأشعر على العكس من ذلك ، بكل ما ينطوى عليه من جد هذا الخبر الذى أنهيه إليك ، ولن أستودعك الله يا أمى دون أن ينفطر قلبى .

سابين : لن يحدث هذا . . . تنسين أنه إذا كان

ستانجى قد وضع نفسه رهن إشارتكما ، فذلك يدافع من العطف علىّ فحسب . فإذا ما عرف أن إحسانه سوف لا يستهدف غير عذابى ؟ فهل تظنين أنه سيقبل التمسك بوعده ؟

مارى چان : لن تعترضى على ما وعد به ؟ آه ! يا أماه ! لا تهدمى الآمال الرائعة التى شيدناها أنا وديديبه ! لا تلقى بى فى تيه البحر !

سابين : اطمئنى ! مهما هويت فلن ألجأ إلى وسيط بينى وبينك ليلقى عليك درساً ويعلمك أن تحبينى ويرغمك على ذلك !

مارى چان : أليس واجباً علىّ أن أضع حبى لزوجى فى المقام الأول ؟ إنه لو لم يربكنى لومك لى ووطأة سلطانك علىّ منذ أخذنا فى الحديث ، لوجدت العبارة والحماس اللذين يثيرهما الحب الخالص .

سابين : كلا ! كلا ! أنت لا تحبيننى ! إن الإنسان لا يحب إلا من يؤثر على غيره ، لأنه فى ساعة الاختيار يصبح ، جسما وروحاً ، ملكاً للمخلوق الذى يؤثره بحبه ، ويدوس من أجله على الباقين الذين لا يحبهم ، أو الذين يحبهم حباً قليلا أو الذين يحبهم شيئاً ما ، فليسوا سوى طبقات مختلفة من عدم المبالاة . لقد آثرتك فيما مضى على كل شىء . . كان هنا منذ حين رجل اعتقدت أن قلبى تألم بسببه فيما مضى ، واعتقدت أننى قد أتألم من أجله مرة أخرى . كلا ! لم يكن هـــذا هو الألم الحق ؟ فى هذه اللحظة فقط ، وبسببك أنت ، أشعر إلى أى الأعماق يمكن أن أهبط فى هوة الألم ! مارى جان ! إذا كان اليأس يغرقنى ويعمينى ، وإذا كان لا يزال ثمة فى جسدك ، على الرغم مما يبدو واضحاً ،

ركن من المشاعر من أجلى ، أوه! احتجى على كلامى ! احتجى يا بنيتى بأنك لم تقدرى سلفاً كل هذا الألم الذى كنت سأشـــعر به . أسرعى وقولى إنك لا تستطيعين أن تنتزعى نفسك من أحضانى ؛ ولا أن تجعلى هذه الغيبة الطويلة تسود بيننا .

مارى جان : أقسم لك يا أمى العزيزة إننى أود لو استطعت أن أشطر نفسى شطرين . . لكن غيبتى لن تطول إلى الأبد ، على الأقل سأعود يوما لأتعق بعنقك فى سعادة وسرور .

سابين : أوه ! إذا لم يكن الحزن قد حملنى إلى القبر .

مارى جان : لا تحدثينى بهذه الأحاديث يا أمى ! لى صديقات ذهبت بهن أعمال أزواجهن إلى المعسكرات فى جنوب الجزائر وفى الهند الصينية ، ولولا أن سعادتهن الزوجية

ومصلحتهن جاءت قبل أى اعتبار آخر
فى نظر أمهاتهن . لولا ذلك — لا ضطررن
إلى الطلاق .

سابين : لقد خدمت بيتك بما يفوق التصور !
وأنا لا أتآمر ضده . إننى أريدك سعيدة
فى بيتك بقربى . أريد أن أحصل على
نصيبى فى تأمل سعادتك وحياتك العادية ،
وذلك اللون الوردى الذى يعود إلى
بشرتك . إننى أتمسك بك كما لو كنا
لا نزال أبدا جسدا واحدا منذ ولدتك
منذ واحد وعشرين عاما . لقد أعطيتك
الدليل على حنانى ، من الآلام التى
قاسيتها فى ولادتك ، والأيام الشديدة
والليالى العصيبة بعد ذلك ، حينما كنت
صغيرة ، ولما كبرت .. تلك الأيام
والليالى التى كانت أناتك فيها تبعث فى
أحشائى من جديد . رعشات الألم التى

أحسست بها ساعة ولادتك ، لقد قدمت
لك طوال هذه السنين أدلة حبي وإخلاصي
الذى قد يبلغ — إذا لزم الأمر — أرذل
ألوان المخازى ، وأخطر أنواع الجرائم !
وأنا لا أخشى أن أضع فى الميزان آيات
حبي لك مع حب السيد ديدييه :

ماري چان : [وقد رفعت قامتها] أمى ! أرجوك ،
لا تثورى ضده ، إنه زوجى :

سابين : نعم ؛ زوجك ! معنى ذلك أنه منذ أربع
سنوات كان عابر سبيل أتاحت له صدف
المقابلات أن يجيء وأن يقف إلى جانبك ،
وأن الرباط بينكما لم يخلق إلا فى لذة
المداعبات ، أما أدلة الحب ، فمنذا الذى
قدمها فى هذه المناسبات ؟ أنت وحدك
بطهارتك وبجمالك ، وربما بمهرك !

ماري چان : تذهبين إلى أى تلميح ؟ أتشكين فى حبه ،
أماه ؛ لا تزيدى كلمة واحدة ! فهذا

خير للمشاعر التى أود أن أكنها لك .

سابين : ماذا ؟ هل فرض على أن أصمت بينما توشكين أنت أن تحرمينى منك لصالحه ! من حقى — تأييدا لدعواى — أن أبين لك أن عميل الشؤم هذا قد أودى بك فى غباء إلى أشد المواقف سوءا ، لقاء ما قدمت له من خير . وما أضافه إلى هدايا زواجك ، إنما هى الدموع ، وانهيار [صحتك ، وعار الإفلاس ٥

مارى چان . هذا كثير ! إن من يمسه يجرحنى ! وداعا !

سابين : إلى أين تذهبين ؟

مارى چان : إلى الطريق لألقى المفلس الذى سأتبعه حتى نهاية العالم [تبتعد مارى چان]

المشهد السابع

سابين وحيدة تنادى ابنتها التى تختفى

سابين : مارى چان ! لقد ذهبت ، لقد بدأت
فى الرحيل إلى الأبد ؛ ها أنا ذى وحدى
[تتحول نحو الدار] أماه ! أماه !

المشهد الثامن

سابين . . مدام فونتنيه

مدام فونتنيه : [تقبل مسرعة] ماذا حدث ؟ لشد
ما تخيفيننى !

سابين : مارى چان تفارقنى ، وعما قريب لن
أراها قط . سيأخذها منى زوجها ؛
وسيجريان معاً سعياً وراء الثروة فى بلاد
ستانجى .

مدام فونتنيه : ما هذا الكلام ؟ إنه مشروع فى الهواء ،
إنه نزوة عابرة ؛

سابين : كلا ! لو أنك سمعت مارى چان وشاهدت عنادها ، لشاركتنى يقينى . . فياله من دليل أخير لن ينمحى بالإضافة إلى أدلة أخرى تثبت أنه لم يعد لى حساب فى نظرها ! ما أقسى ما سببت لى من ألم ! . . ما أشد ألمى ! . . أوه ! أوه ! أوه ! . .

مدام فونتنيه : لا تبكى هكذا ، ياعزيزتى سابين [تنهدات سابين تنغم كلمات مدام فونتنيه] آه ! إن دموعك لتؤثر فى بما يفوق بكثير نوبات غضبك التى ربما قابلتها بالإصرار والقسوة . . ولكن ما الذى أستطيع أن أعمله لأسرى عنك ؟ لترى ، سأدفع كل ما يلزم من مال . . نعم وليغفر لى أبوك إذا كنت أتأهب للحنث بقسمى ! بنيتى ! سأتحدث إلى زوج ابنتك وسأقدم ما يطاب من ثمن لأستبقيـــه مع مارى چان .

سابين : لن يستمعا إليك . لقد أسكرتهما الأوهام الآن . إنهما يريان الملايين تتراقص فى أحلامهما . إن مواردك كلها ستبدو الآن قليلة أمام مطالبهما الجديدة . سوف يذهبان .. وسأحاول أن أنسى مارى جان. فبعدما رمتنى به من إحساس باردكالجليد، لم يعـــد فى مقدورها أن تجعلنى أستشعر الدفء بقربها . لم تعد لى ابنة . . لم يعد لى سواك ، بل لم يكن لى أحد سواك قط ؛ ومع ذلك كنت أقسو عليك . لا تعارضينى ! دعينى فقط أعد نفسى بحياة أركع فيها أمامك منذ الآن ، وأرجو فيها أن أضع ، وسط التوبة ، رأسى مهما ثقلت ، هكذا على ركبتيك ! لكن ماذا ؟ ما بك ؟

مدام فونتنيه : [وهى تحاول النهوض] آه ! [تسقط]

سابين : أوه ! أوه ! كلا ! ليس هذا ! هيا

تكلمي ! تحركي ! ما أشد ضغطها على يدي [تتخلص سابين بعنف]هاتان العينان ! ماتت ! لقد ماتت ! من أجل ابنتي . . قتلت أمي .

[ستار]

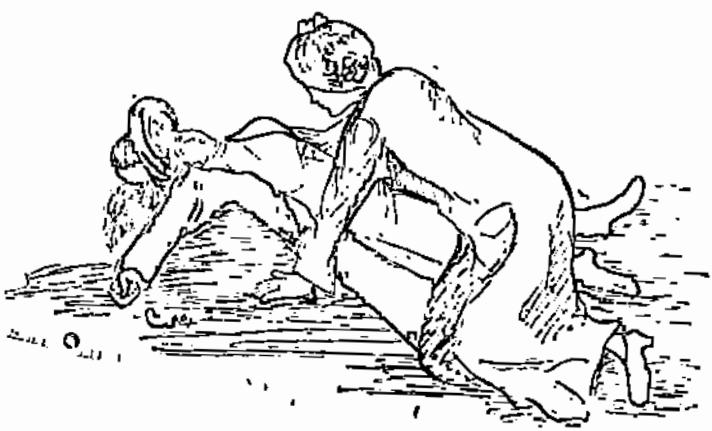

[تم طبع الكتاب بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر]

مدير المطبعة

محمود رشـــوان